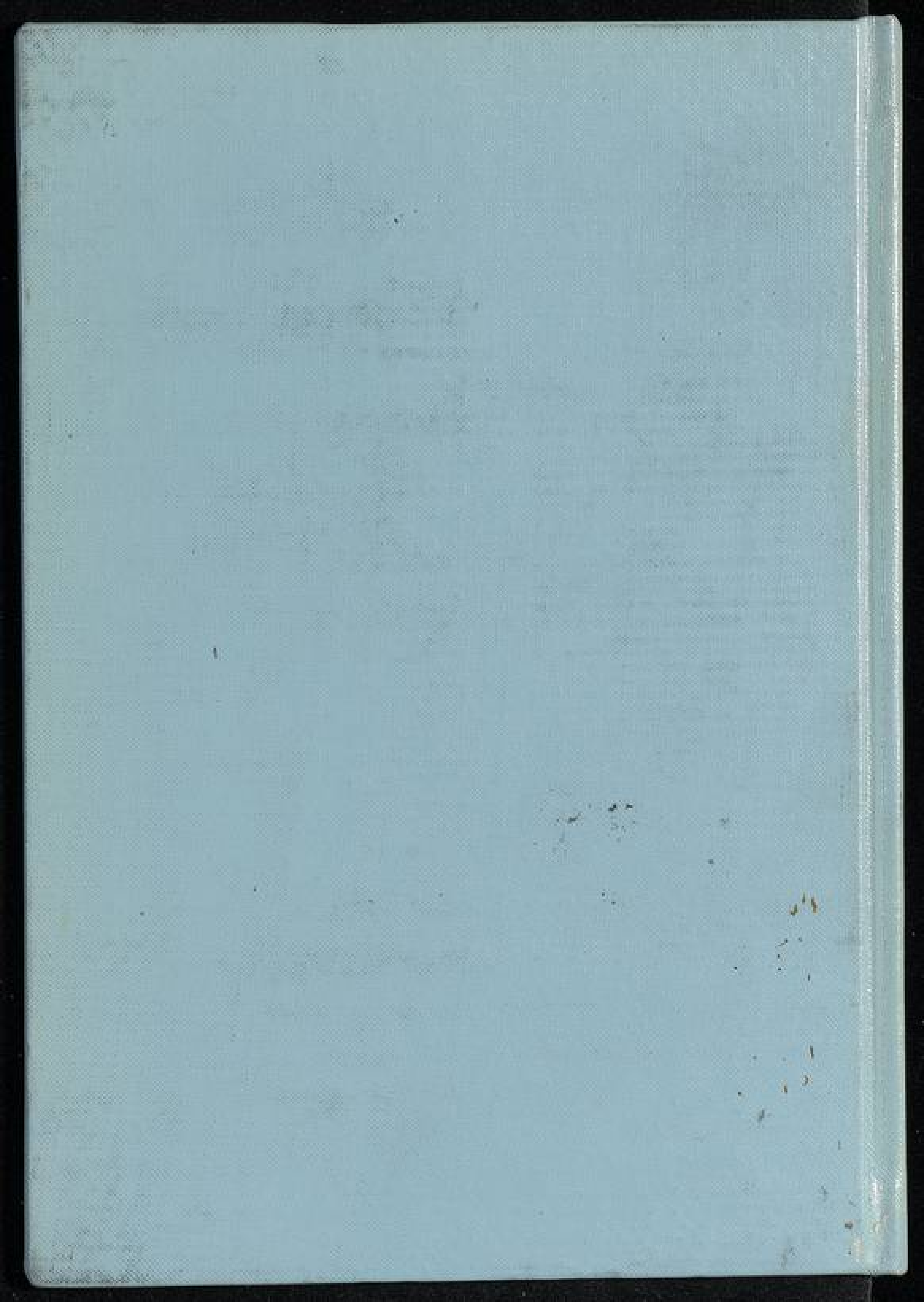
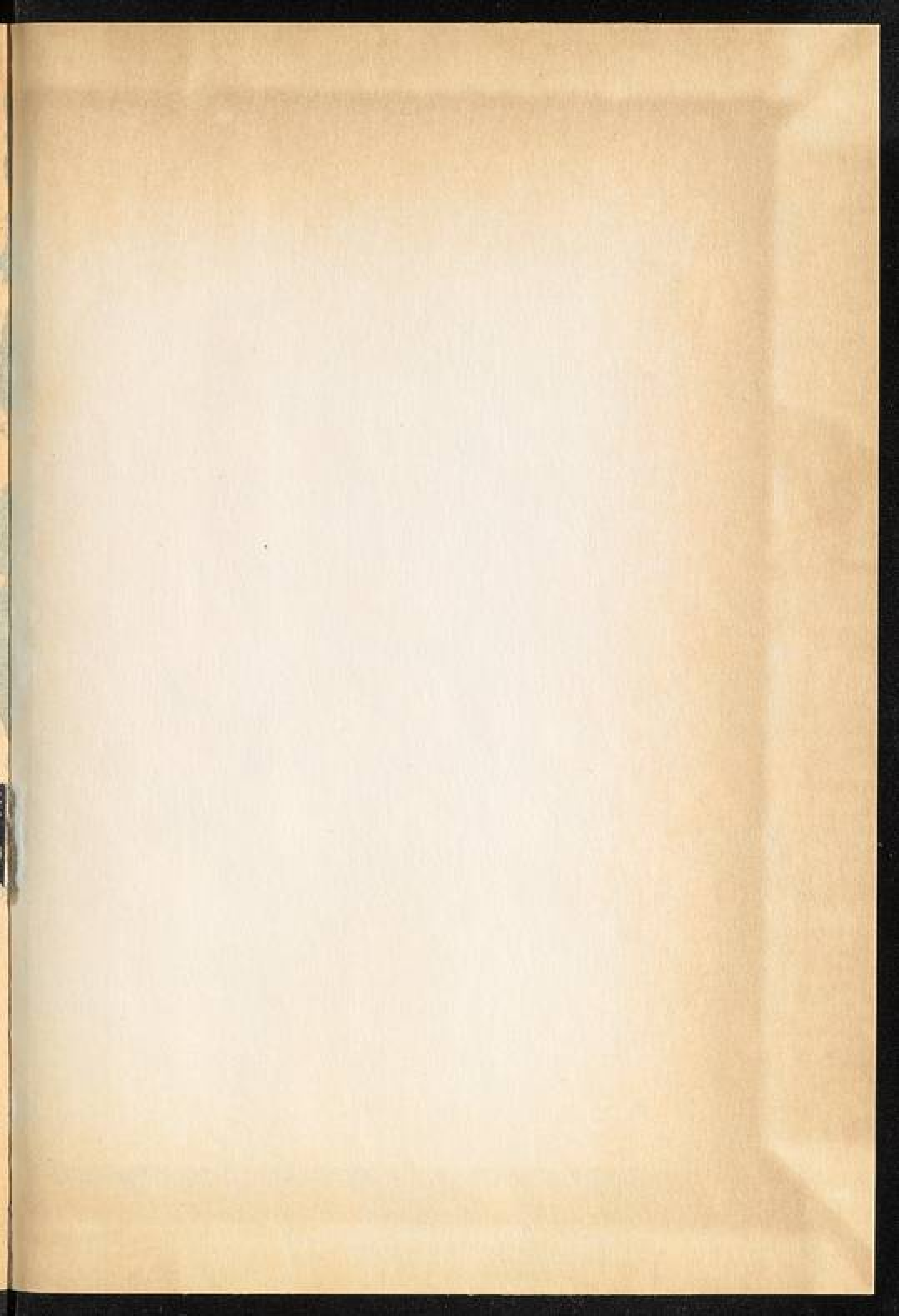




al-Juʿfi, al-Mufaddal ibn ʿUmar.
[Tawhid al-mufadal]

توحيد المفضل

إملاء

الامام أبي عبد الله الصادق (ع)

على المفضل بن عمر الجعفي

قدم له وعلق عليه

كاظم باقر المظفر

طبع على نفقة
محمد كاظم الشيخ صادق الكتبي
صاحب المكتبة والمطبعة الحيدرية في النجف

(الطبعة الثانية)

منقحة ومضبوطة

منشورات المطبعة الحيدرية في النجف

١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المفضل بن عمر

سيرته وتوحيده

١ ـ توطئة :

في نهاية عام ١٩٤٩ تقدم الأخ الفاضل محمد كاظم الكتبي إلى طبع كتاب التوحيد الذي أملاه الامام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) على تلميذه النجيب : المفضل بن عمر الجعفي ، وما ان نزل إلى الأسواق حتى تداولته الأيدي ، ونفدت نسخه الكثيرة في بضعة شهور ، وظل الأخ الكتبي يحدث نفسه بطبع الكتاب مرة ثانية ، ولكنه أحب هذه المرة أن يخرجه في حلة جديدة ، ويضيف اليه شرح ماغمض من تعابيره وأشكل من ألفاظه ومعانيه ، ثم وضع مقدمة له تبين أغراض الكتاب ومقاصده العالية ، وترجمة المفضل وعلاقته بسيده الامام الصادق ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي تمس الكتاب وتحوم حوله .

وقد تحدث إلي الأخ الكتبي بهذا الأمر ، وكلفني بأن أتولى ذلك بنفسي ، فلم أجد مناصاً من ذلك ، وقمت بالمهمة على عجالة وسرعة ، ذلك لانشغال البال ، وكثرة الأعمال ، وانصراف الذهن إلى مهام أخرى ، واني لأرجو ان أتفرغ له مرة ثانية ، فأزيد في شرحه وأوليه العناية التي هو أهلها .

وحسبي الآن هذه التعاليق البسيطة التي ارجو أن تكون حافزاً لغيري من الأفاضل على درس كتاب التوحيد والقيام بشرحه شرحاً مستفيضاً .

٢ ـ حياة المفضل :

ولد ابو محمد وقيل ابو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي ، فيما بين أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري في مدينة الكوفة الآهلة ـ يومئذ ـ برواد العلم ، واقطاب الفكر الاسلامي

ونستنتج من بعض الروايات ان المفضل عاصر الامام الباقر واحتك به ، فأدرك الدولة الأموية .. ومن ثم اتصل بالامام الصادق ، وبعده بالامام موسى الكاظم ، وقد أخذ عنهما الحديث والرواية ، وكان أثيراً لديهما ، قريباً اليهما ، متوكلا عنهما ، متولياً لهما في قبض الاموال ، وتفويضه في ذلك تفويضاً يدل على ثقة الجميع به واعتمادهم عليه ، وقد قال له الصادق مرة : (اذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة ، فافتدها من مالي) (١) .

وعاصر بعد ذلك الامام الرضا ، وفي أيامه توفى ، وكان ذلك في أخريات المائة الثانية من الهجرة ، عن عمر ناهز الثمانين سنة . ولما بلغ موته الرضا قال فيه هذه الكلمة الخالدة : (كان الوالد بعد الوالد .. اما انه قد استراح) (٢) ، وفي خبر آخر ان الرضا خاطب أحد أصحابه بقوله (أما ان المفضل كان انسي ومستراحي) (٣) .

ومن المؤكد ان المفضل توفى ، وهو لم يكن بطوس ولا ببغداد ،

---

(١) مستدرك الوسائل للعلامة النوري ـ ج ٣ ص ٥٦٢ ط دار الخلافة بطهران .

(٢) معرفة أحوال الرجال للكشي ـ ص ٢١١ ط المصطفوية ببمبي ، ورجال أبي علي ص ٣٠٨ ط العجم .

(٣) العيون للشيخ الصدوق في باب النصوص على امامة الرضا ، وتنقيح المقال للمامقاني ج ٣ ص ٢٣٨ ط المرتضوية بالنجف .

وانما كان بالكوفة ، فانها كانت مسقط رأسه ، وبها كان وكيلا من قبل الامامين الصادق والكاظم ، وكان المفضل حياً حتى سنة ١٨٣ هـ . وهي السنة التي توفى بها الكاظم ، ولم يدم بعـد ذلك إلا قليلا ، لا سيما وان الاخبار لم تكن متوفرة عن اتصاله بالرضا مما ترجح عندنا وفاته بعد سنيات من موت الكاظم .

٣ - كتب المفضل :

كان المفضل دائباً على الحضور في مدرسة الامام الصادق ، وقـد استقى الكثير من الاحاديث والعلوم عنه ، وعن ولده موسى الكاظم ، وعن حفيده ابي الحسن الرضا . . وعند اختمار تلكم الاحاديث والمعارف في ذهنه وعند ما نضجت في عقله ووعاها حق الوعي ، استطاع أن يؤلف عدداً من الكتب فيما لا تخرج مضامينها ومواضيعها عن حدود الشريعة الاسلامية وعن عظمة الخالق ، وعن الموجودات والخلائق .

وسنذكر هنا ما استطعنا الوقوف عليه من كتب المفضل وتآليفه . وهي كما يلي :

١ - كتاب الاهليلجة : هو من إملاء الامام الصادق على المفضل في قصة تروى في أول الكتاب ومفادهـا : ان طبيباً حاج الامام في الاهليلجة ، وفيها رد على الملحدين المنكرين للربوبية . وقد أوردها العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي في المجلد الثاني في التوحيد من (بحار الانوار) مع الشرح والبيان ، وقال في الفصل الثاني من أول البحار : (ان بعض علماء المخالفين نسب هذا الكتاب إلى الامام الصادق) وهذا مما يحقق نسبته إلى المفضل من املاء الامام عليه ، وان داخل بعضهم ريب من ذلك !

٢ - كتاب كنز الحقائق والمعارف : هو نفس كتاب التوحيد ، ولا ندري من وضع هذا الاسم الجديد لكتاب التوحيد ، إلا أن الشيخ

أغا بزرك قال : (. . وسماه ـ أي كتاب التوحيد ـ بعض الفضلاء بكنز الحقائق والمعارف) (١) . . وهذا الاسم غير مطابق لمضامين الكتاب كل المطابقة .

٣ ـ الوصية : وهي التي أوصى بها الصادق تلميذه المفضل فيما يتعلق بأحوال المسلمين ، ومعائشهم ، وأهوائهم ، وما كان لهم ، وما سيكون ، وما في العالمين السفلي والعلوي من اسرار وخفايا .

وقد ظن الدكتور مصطفى جواد أن رسالة الوصية هذه هي نفس كتاب بدء الخلق الآتي ذكره ، وبعبارة أخرى هي نفس كتاب التوحيد بينما نرى أن الوصية رسالة خاصة ليست لها أية علاقة بكتاب التوحيد ، ونجد في بعض المصادر (٢) قطعا مقتضبة من وصايا الصادق للمفضل مما يؤكد صحة قولنا .

أما ما ذكره الرجالي الثبت البصير أحمد بن علي النجاشي المتوفى عام ٤٥٠ هـ من مؤلفات المفضل ، فهي :

٤ ـ كتاب ما افترض الله على الجوارح من الايمان : جوهر هذا الكتاب دال ومعروف من عنوانه وان كان تفصيل موضوعاته غير بين لدينا

٥ ـ كتاب الايمان والاسلام : ويستفاد من النجاشي (٣) ان هذا الكتاب هو نفس الكتاب السابق ، وتطرق إلى ذكره الشيخ أغا بزرك (٤)

---

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٤ ص ٤٨٢ ط الغري بالنجف .

(٢) من تلك المصادر : كتاب بصائر الدرجات ، وكتاب الصادق ج ٢ ص ٥٥ ط الثانية .

(٣) ص ٢٩٥ من رجال النجاشي . . قال النجاشي : (كتاب ما افترض الله على الجوارح من الايمان وهو كتاب الايمان والاسلام) وهذا القول صريح في إثبات ما ذكرناه .

(٤) في موسوعته الجليلة (الذريعة) ج ٢ ص ٥١٤ .

إلا انه لم يشر إلى هذا المعنى ، بل عده مستقلا عن الكتاب السابق .

٦ - كتاب يوم وليلة : ولا يبعد أن يكون موضوع هذا الكتاب خاص في الأعمال المستحبة والأدعية التي سمعها المفضل ورواها عن أهل البيت فيما يتعلق باعمال اليوم والليلة .

٧ - كتاب علل الشرائع : والظاهر أن هذا الكتاب يبحث عن فلسفة الاحكام الشرعية ، وعن فوائدها ومنافعها ، وما أشبه ذلك ، واذا تحقق هذا فالكتاب جليل فى بابه لابد أن يكون على جانب من الخطورة

٨ - كتاب فكر وهو الاسم الذي اصطلحه النجاشي (١) لكتاب التوحيد

٩ - كتاب بدء الخلق والحث على الاعتبار : هـو نفس كتاب التوحيد . وقد ظن بعض المتأخرين (٢) ان هذا الكتاب مستقل بذاته ، وأنا لا اقرهم على ذلك ، فان النجاشي يصرح قائلا : (كتاب فكر كتاب فى بدء الخلق والحث على الاعتبار) (٣) أي ان كتاب فكر هو كتاب يبحث فى بدء الخلق والحث على الاعتبار ، لا سيما اذا علمنا ان حقيقة مضامين الكتاب لا تبحث إلا في الابداع والخلقة ، ويتجلى ذلك في قول الامام مخاطباً المفضل (٤) (نبدأ يا مفضل بذكر خلق الانسان فاعتبر به) وقوله أيضاً (٥) : اعتبر يا مفضل ، وقوله كذلك (٦) : اعتبر يا مفضل

---

(١) رجال النجاشي ص ٢٩٢ .

(٢) كالشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى المراجعات الريحانية ج ٢ ص ٨١ ط الاهلية ببيروت ، والشيخ أغا بزرك فى الذريعة ج ٣ ص ٥١ .

(٣) رجال النجاشي ص ٢٩٦ .

(٤) توحيد المفضل ص ٦ ط الحيدرية الاولى بالنجف .

(٥) المصدر السابق ص ٧ .

(٦) كذلك ص ٢١ .

باشياء خلقت لمآرب الانسان . .

٤ ـ الاخبار المروية في حقه :

إذا تصفحت كتب الرجال ، وراجعت ما خطه المؤرخون في المفضل ، وجدت مايدعوك إلى اكباره ، والاعجاب به ، وتقدير خدماته الجلي لآل البيت ، وما كان له من المواقف المحمودة في الذب عنهم ، ونصرته لهم نصرة مؤمن بهم ، موقن بما لهم من الدرجات الرفيعة . . ولما عرف الأئمة منه ذلك بجلوه غاية التبجيل ، وقربوه من أنفسهم ، وانزلوه منزلة الخواص من أصحابهم الثقاة من بطانتهم .

فمن الاخبار المعربة عن شخصيته المحترمة ما رواه أبو حنيفة الجمال قال : مرّ بنا المفضل انا وختني (١) نتشاجر في ميراث لنا ، فوقف علينا ساعة ثم قال : تعالا معي إلى المنزل ، فأتيناه فأصلح بيننا باربعمائة درهم ، ودفعها الينا من عنده . حتى اذا استوثق كل واحد منا من صاحبه قال : أما انها ليست من مالي ، ولكن الامام الصادق أمرني اذا تنازع رجلان في شيء ان اصلح بينهما ، وافتديها من ماله ، فهذا من مال الامام أبي عبد الله (٢) .

ودخل المفضل مرة على الصادق ، فلما بصر به تبسم في وجهه ثم قال : إليّ إليّ يامفضل فوربي اني لأحبك وأحب من يحبك ! . . يامفضل لو عرف جميع أصحابي ما تعرف ما اختلف اثنان ! . فقال له المفضل :

---

(١) الختن : بفتحتين ـ كل من كان من قبل المرأة مثل الاب والاخ جمعه اختان ، والمراد من اللفظ هنا ظاهراً هو الاخ .

(٢) أول من روى هذا الخبر ثقة الاسلام الكليني في كتابه : الكافي ونقله المجلسي في البحار ج ١١ ص ١٢٠ ، والنوري في المستدرك ج ٣ ص ٥٦٢ ، والمامقاني في تنقيح المقال ج ٣ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

يا ابن رسول الله لقد حسبت أن أكون قد أنزلت فوق منزلتي . . ؟ فأجابه الامام : (بل انزلت المنزلة التي أنزلك الله بها . .) (١) .

وليس شيء أدل على واسع علم المفضل ، وخبرته الواسعة في أحكام الشريعة ، من قول الفيض بن المختار للصادق : (اني لأجلس في حلقات أصحابنا بالكوفة ، فأكاد أشك باختلافهم في حديثهم ، حتى أرجع إلى المفضل ، فيقضي من ذلك عليّ ما تستريح اليه نفسي ، ويطمئن اليه قلبي) قال الامام : (أجل هو كما ذكرت) (٢) .

وعدّ الشيخ الكفعمي (٣) المفضل من البوابين (٤) وقال : (ان المراد

(١) مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٥٦٤ .

(٢) تنقيح المقال للمامقاني ج ٣ ص ٢٣٩ .

(٣) في جدول المصباح ص ٢٧٧ ط بمبي . . ونقل عن الكفعمي هذا القول النوري في المستدرك ج ٣ ص ٥٧٠ وأبو علي في رجاله ص ٣١٩ وذكر الأمين في أعيان الشيعة في القسم الاول من الجزء الرابع ص ٥٤٤ ط الترقي : ان المفضل كان بواب الامام الصادق . ومثل هذا في الفصول المهمة لابن الصباغ . . وذكر الامين أيضاً في أعيان الشيعة في القسم الثاني من الجزء الرابع ص ٦ ط ابن زيدون : ان المفضل كان بواب الامام الكاظم . قال ذلك نقلا عن كتاب المناقب لابن شهراشوب .

(٤) البواب في اللغة : هو بمعنى الحاجب ، كما ورد ذلك في (تاج العروس) ج ١ ص ١٥٣ وص ٢٠٣ ، وفي لسان العرب ج ١ ص ٢١٧ وص ٢٨٩ . . وكتب عن الحجابة قليلا محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين ج ٣ ص ٣٤٧ ط الثانية ، وفصل القول عنها ابن خلدون في مقدمته ص ٢٤٣ ط الازهرية ، وفعل ذلك جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٤٤ ط الهلال . . وان مما يستدل به على ان البواب هو بمعنى باب في العلوم والاسرار ، أو ما يشابه هذا المعنى —

من باب الامام على ما يظهر من بعض قدماء الأصحاب هـو بابة في العلوم والاسرار . .) ومن كان أجدر من أصحاب الامام بالمفضل ، لنيل هذه المكانة ، وجعل الامام منه باباً لعلومه ومخبئاً لاسراره .

عن هشام بن أحمد قال : دخلت على أبي عبد الله وأنا أريد أن أسأله عن المفضل ، وهو في ضيعة له ، في يوم شديد الحر ، والعرق يسيل على صدره ، فابتدأني بقوله : (نعم العبد - والله لا إله إلا هو - المفضل بن عمر) حتى أحصيتها نيفاً وثلاثين مرة يقولها ويكررها لي (١) .

وسأل أبو الحسن الكاظم بعض أصحابه فيما يقوله الناس في المفضل فأجابه ! يقولون فيه هبه يهودياً أو نصرانياً ، وهو يقوم بأمر صاحبكم قال الامام : (ويلهم . . !! ما أخبث ما أنزلوه . . ! ! ما عندي كذلك ،

— ما جاء في دائرة المعـارف للمعلم بطرس البستاني ج ٦ ص ٦٨٩ : (. . وحجب السلطان نفسه عن الناس ، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس ، وأهل الرتب العالية ، ثم جعل له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة ، فصارت الخطة أرفع الرتب ، وأوعبها للخطط) (وأظن ان هذا الكلام منقول عن ابن خلدون) وان المراد من لفظ الباب في هذا الموضع بالذات هو باب الأئمة في علومهم وأسرارهم ، كما صرح بذلك القمي في سفينة البحار ج ١ ص ١٤٣ .

(١) رجال الكشي ص ٢٠٧ ، ورجال أبي علي ص ٣٠٨ والمستدرك ج ٣ ص ٥٦٣ ، ورجال الشيخ محمد طه نجف ص ٣٧٢ ، ورجال الاسترابادي ورجال القهبائي المخطوط . . وروى هذا الخبر شيخ الطائفة الطوسي في كتاب الغيبة ، والظاهر انه أخذه من غير رجال الكشي ، للاختلاف في مواضع المتن والسند . . كما رواه أيضا محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات ، والمجلسي في البحار ج ١١ ص ٩٢ في باب معجزات الامام الصادق ط التبريزي بايران .

ومالي فيهم مثله (١) .

وصرّح الشيخ المفيد (٢) بأن المفضل ممن روى النص عن أبي عبدالله على ابنه أبي الحسن موسى ، وانه من شيوخ أصحابه وخاصته وبطانته وثقاته الفقهاء الصالحين .

وذكر شيخ الطائفة الطوسي (٣) ان المفضل من قوام الأئمة ، وكان محموداً عندهم محبوباً لديهم ، ثم انه كان من وكلائهم الذين مضوا على منهاجهم .

٥ ـ تضميد جروحه :

روينا للقارىء بعض الاخبار والاحاديث التي تدل على حظ المفضل الطيبة ، ومكانته السامية في نفوس آل البيت ، تلك المكانة التي دعت أعداءهم إلى نصب الشراك له ، وايقاعه فيها ، كرميه بالتهم والاباطيل وقذفه بالاكاذيب والافتراءات .

وإذا رجعنا إلى عصر الامام الصادق ، للمسنا تشدد الحاكمين على آل البيت وأصحابهم . وكان أكثر الشيعة يلوذون بأئمتهم ، حفظاً لظهورهم

---

(١) رجال الكشي ص ٢١١ ، والمستدرك ج ٣ ص ٥٦٤ .

(٢) في كتابه الارشاد ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ في باب النص على امامة أبي الحسن موسى . ونقل هذا البيان جملة من أصحاب الرجال كالتفرشي في رجاله ص ٣٥٢ ط طهران ، ومحمد بن الحسن الاشعري في الجزء الثالث من الوسائل ص ٥٩٨ ط دار الخلافة ، وأبو علي في رجاله ص ٣٠٩ ، وعناية الله القهبائي في مجمع الرجال ـ مخطوط ـ والشيخ محمد طه نجف في اتقان المقال ص ٣٦٩ ، والنوري في المستدرك ج ٣ ص ٥٧٠ ، والمامقاني في تنقيح المقال ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٣) في كتاب الغيبة ص ٢٢٤ .

من سياط جلاوزة العباسيين وولاتهم الجائرين الذين لم يألوا جهداً في مطاردة أهل البيت ومن يمت اليهم بصلة .

ومن أجل ذلك اضطر الامام الصادق أن يعمل بالتقية ، حتى صارت التقية هذه سياسة خاصة سار عليها هو وأصحابه جميعاً ، وحتى انه كان يعيب خاصة أصحابه ، كي يبعد الشبه التي تحوم حولهم والتي طالما هددتهم بالموت والفناء . وقد فعل الامام ذلك بدافع الشفقة عليهم لاخفاء حالهم ، حتى لا يتعرض اصحابه للشر .

ولهذا فان الاحاديث المروية في ذم المفضل والقدح به ينبغي حملها على التقية ، وكذا ما ورد في حق أمثاله من أجلاء الأصحاب ، بعد تحقق عدلهم وتواتر المدح لهم . . فقد روي عن عبد الله بن زرارة بن أعين انه قال له الامام أبو عبد الله : (اقرأ والدك السلام وقل له : انما اعيبك دفاعاً مني عنك ، فان الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه ، لادخال الاذى فيمن نحبه ونقربه ، فيذمونه لمحبتنا له ، وقربه ودنوه منا ، ويرون ادخال الاذى عليه وقتله ، ويحمدون كل من عبناه ، وان نحمد أمره . فانما اعيبك لانك رجل اشتهرت بنا وبميلك الينا ، وأنت في ذلك مذموم عند الناس ، غير محمود الاثر لمودتك منا وميلك الينا ، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك ويكون بذلك منا دفع شرهم عنك . . الخ (١)

وهناك خبر أورده الكشي (٢) ويستشف منه ان المفضل كان يؤمن بامامة اسماعيل بن الصادق ، ولا صحة لهذا الخبر اطلاقا ، لأن المفضل كان علما في الدعوة الى الامام الكاظم ، حتى دعيت الفرقة المتمسكة

---

(١) رجال الكشي ص ٩١ ، وكتاب الوسائل ج ٣ ص ٥٨٤ .

(٢) رجال الكشي ص ٢٠٩ ، ورجال أبو علي ص ٣٠٨ ، ورجال الاسترابادي ص ٣٤٢ .

بامامة الكاظم والتي اتبعت المفضل فى رأيه ـ دعيت هذه الفرقة بـ (المفضلية) نسبة اليه . . قال محمد بن عبـد الكريم الشهرستاني المتوفى عام ٥٤٨ هـ :
(الموسوية أو المفضلية : فرقة واحدة قالت بامامة موسى بن جعفر نصاً عليه بالاسم ، حيث قال الصادق (سابعكم قائمكم) . . ولما رأت الشيعة ان أولاد الصادق على تفرق ، فمن ميت فى حال حياة أبيه لم يعقب ، ومن مختلف فى موته ، ومن قائم مدة يسيرة ميت غير معقب . وكان موسى هو الذي تولى الأمر ، وقام بعد موت أبيه ، رجعوا اليه ، واجتمعوا عليه مثل المفضل بن عمر وررارة بن أعين وعمارة الساباطي) (١) .

وكتب عدّة من أهل الكوفة إلى الصادق قالوا : (ان المفضل يجالس الشطار (٢) وأصحاب الحمام (٣) وقوماً يشربون شراباً ، فينبغي أن

---

(١) ص ٣ ـ ٤ ج ٢ من كتاب الملل والنحل ط الأدبية بمصر .

(٢) لعل المراد من أصحاب الشطار : ما أشار اليه الزبيدي في تاج العروس ج ٣ ص ٢٩٩ إذ يقول : « الشاطر من أعيا أهله ومؤدبه خبثاً ومكراً جمعه الشطار كرمان ، وهـو مأخوذ من شطر عنهم : اذا نزح مراوغاً ، وقد قيل انه مولد » اهـ . والعامة عندنا تستعمل هذا اللفظ في النبيه الماضي في أموره ويخلط المكر ويحسن المراوغة . وقـد الف الجاحظ في هذا المعنى كتابا أسماه (أخلاق الشطار) راجع معجم الأدباء ج ١٦ ص ١١٠ ط دار المأمون ، وكتاب [آثار الجاحظ] لمحرر هـذه السطور ـ مخطوط ـ .

(٣) الحمام : طائر معروف ـ والواحدة حمامة للذكر والأنثى ، لأن الهاء هنا ليست للتأنيث ، وانما هي للدلالة على الفردية . وأصحاب الحمام ـ كما يظهر ـ هم الذين يتعاطون بيعه واللهو به والانس بطيرانه ، على نحو ما نراه في وقتنا . . وقد كتب عن الحمام مفصلا ـ ١ ـ القلقشندي في صبح الاعشى ج ٧ ص ٢٣١ وج ١٤ ص ٣٨٩ ط الأميرية بالقاهرة ـ ٢ البستاني ـ

تكتب اليه ، وتأمره أن لا يجالسهم ، فكتب إلى المفضل كتابا وختمه ودفعه اليهم ، وأمرهم أن يدفعوا الكتاب من أيديهم إلى المفضل . ولما جاؤا المفضل ، ودفعوا اليه الكتاب ، ففكه وقرأه ، فاذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . . . اشتر كذا وكذا وكذا) ولم يذكر فيه قليلا ولا كثيراً مما تحدثوا به مع الامام ، فلما قرأ الكتاب دفعه إلى كل واحد من الذين جاؤا بالكتاب ، ثم قال : ماتقولون . . ؟ قالوا : هذامال عظيم ! دعنا حتى ننظر فيه ونجمعه ونحمله اليك ، ثم تدرك الانزال بعد ظهر في ذلك . وأرادوا الانصراف فقال المفضل : تغدوا عندي ، فاجلسهم لغدائه ، ووجه المفضل إلى أصحابه الذين سعوا بهم ، فلما جاؤا اليه ، قرأ عليهم كتاب الصادق ، فرجعوا من عنده ، وحبس المفضل هؤلاء ليغدوا عنده فرجع الفتيان ، وحمل كل واحد منهم على قدر مقدرته الفاً والفين واكثر فحضروا واحضروا الفي دينار وعشرة آلاف درهم ، قبل أن يفرغ هؤلاء من صلاتهم . فقال لهم المفضل : تأمروني أن أطرد هؤلاء من عندي ! . . تظنون ان الله محتاج إلى صلاتكم وصومكم (١) .

-في دائرة المعارف ج ٧ ص ١٦٣ -٣ وجدي في دائرة معارف القرن العشرين ج ٣ ص٦٠٧ -٤- الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤٥-٧٩ ط التقدم -٥- الدميري في حياة الحيوان ص ١٨٨ ط الحجر -٦- ابن سيدة في المخصص سفر ٨ ص١٦٨ ط الأولى -٧- جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٢٣ ط الثانية -٨- وكتابه الآخر عجائب الخلق ص ١٤٧ - ١٥٤ ط الثانية -٩- مجلة الهلال السنة ٤٤ ص ٨٨٥ .

(١) رجال الكشي ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، والمستدرك ج ٣ ص ٥٦٣ ، ورجال المامقاني ج ٣ ص ٢٣٩ ، ورجال الاسترابادي ص ٣٤٢ . واتقان المقال ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

وذكر النوري (١) ان الشيخ الصدوق روى في - من لا يحضره الفقيه - عن المفضل بن عمر ، وقد قال الصدوق في مقدمة كتابه (٢) : « ان لم أقصد قصد المصنفين في ايراد جميع ما رووه ، بل قصدت إلى ايراد ما أفتي به ، واحكم بصحته ، واعتقد انه حجة فيما بيني وبين ربي تقدس ذكره ، وجميع ما فيه مستخرج من كتب مشهورة عليها المعول »
ونحن اذا قرأنا هذا القول وضح لنا ان المفضل ممن يعتمد عليه الصدوق ولو كان غير مرضيٍّ عند الأئمة ، لما خفي على الصدوق القريب من زمانهم ، ولما أودع خبر المفضل في كتابه ، وجعله حجة فيما بينه وبين ربه .

وحكم المشهور فيما لو تلبس بصلاة الليل ، ولم يتم أربع ركعات ، وطلع الفجر ، قطعها وأتى بفريضة الصبح - ان هذا الحكم المشهور مأخوذ من رواية للمفضل (٣) .

---

(١) في المستدرك ج ٣ ص ٥٦٢ .

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه .

(٣) استدل لهم على هذا الحكم المشهور ، جماعة منهم النراقي في المستند ص ٤٤ ، والميرزا القمي في الغنائم ص ١٢٥ ، والسيد علي بحر العلوم في البرهان القاطع ج ٣ ص ٤٤ والمحقق شيخ الطائفة في الجواهر وأغا رضا الهمداني في مصباح الفقيه استدل هؤلاء العلماء بعدة أحاديث منها حديث المفضل الذي رواه الشيخ الطوسي في التهذيب في باب كيفية الصلاة وصفتها ، وروى عنه في الوافي ج ٢ ص ٥٦ في باب من ضاق عليهم وقت صلاة الليل . وها هو الحديث : - . . . عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن زرعة عن المفضل بن عمر ، قال : قلت لأبي الله : أقوم وأنا أشك في الفجر ، فقال : صلِّ على شكك ، فاذا طلع الفجر فأوتر وصلِّ الركعتين ، فاذا أنت قمت وقد طلع الفجر ، فابدأ بالفريضة ، ولا تصل-

وكان ابن شعبة قد عقد في كتابه النفيس ـ تحف العقول ـ بعد أبواب مواعظ الأئمة وحكمهم على الترتيب ـ عقد باباً في مواعظ المفضل، ذكر فيه جملة من النصائح القيمة التي روى أكثرها عن الصادق.. ومما فيه عن المفضل قال أبو عبد الله وأنا معه: يا مفضل كم أصحابك..؟ فقلت: قليل.! فلما انصرفت إلى الكوفة أقبلت عليَّ الشيعة تمزقني شر ممزق! وتأكل لحمي، وتشتم عرضي! حتى ان بعضهم استقبلني فوثب في وجهي. وبعضهم قعد لي في سكك الكوفة يريد ضربي! ورماني الكثير منهم بالبهتان. فبلغ ذلك أباعبد الله، فلما رجعت اليه في السنة الثانية كان أول ما استقبلني به ـ بعد تسليمه عليَّ (١) ان قال: يا مفضل ما هذا الذي بلغني.؟ ان هؤلاء يقولون لك وفيك، قلت: وما عليَّ في قولهم قال: أجل بل ذلك عليهم. أيغضبون.؟ بؤسا لهم! انك قلت ان اصحابك قليل، لا والله ما هم لنا بشيعة، ولو كانوا لنا شيعة ما غضبوا من قولك ولا اشمأزوا منه، لقد وصف الله شيعتنا بغير ما هم عليه، وما شيعة جعفر إلا من كف لسانه، وعمل لخالقه، ورجا سيده، وخاف الله ـ وفي آخر حديث الامام مخاطبا المفضل ـ أما اني لولاني أخاف عليهم ان أغويهم بك لأمرتك أن تدخل بيتك وتغلق بابك ثم لا تنظر اليهم ما بقيت ولكن ان جاؤوك فاقبل منهم فان الله قد جعلهم حجة على أنفسهم واحتج (٢)

ـ غيرها، فاذا فرغت فقض مكانك، ولا يكون هذا عادة، واياك أن تطلع هذا أهلك، فيصلون على ذلك، ولا يصلون بالليل.

(١) لعل الصحيح في العبارة: تسليمي عليه، لما تقتضيه الآداب المرعية مع الامام.

(٢) كذا في الاصل، وربما كان الصحيح: احتج بهم على غيرهم، كما هو المفهوم من سياق العبارة.

على غيرهم (١) :

٦ ـ اتصال العرب بالثقافة اليونانية :

في مقال للباحث القدير والدكتور النبيه مصطفى جواد (٢) تطرق إلى كتاب توحيد المفضل ، فحاول أن يثبت ان هذا الكتاب ليس للامام الصادق ، وانما هو للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري !. فقال ان رسالة التوحيد هذه : (تمثل النهضة العلمية التي بدأت على عهد المأمون ، وأثمرت في أيام الجاحظ وغيره من الفلاسفة والمتكلمين ، وذلك لورود الأسماء اليونانية فيه مثل « قوسيموس » (٣) وغير ذلك) . . وقد خفي على ذهن الدكتور الثاقب ان العرب لم يكونوا بمعزل عن الثقافات اليونانية المختلفة ، فقد اتصلوا بها منذ العصر الجاهلي حتى بزوغ فجر الاسلام . .

فهذا الحارث بن كلده (٤) كان من ثقيف أهل الطائف ، رحل إلى

(١) نقل هذا القول عن (تحف العقول) العلامة النوري في مستدركه ج ٣ ص ٥٧٠ ـ ٥٧١ .

(٢) هذا المقال بعنوان (أتوحيد المفضل . . أم توحيد الجاحظ ؟) نشر في العدد العاشر للسنه الأولى من مجلة ـ لواء الوحدة الاسلامية ـ الصادر بتاريخ ٤ / ١ / ١٣٦٩ هـ = ٢٢ ـ ٤ ـ ١٩٥٠ م .

(٣) قال الامام الصادق في تفسير هذه الكلمة : (ان اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم قوسموس وتفسيره الزينة وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة) أنظر توحيد المفضل ص ٨٩ ط الحيدرية الأولى .

(٤) كلدة (بكسر ففتحتين) كما في فجر الاسلام ج ١ ص ١٩٠ ، وصورة ثانية (بفتح فسكون فضم) كما في مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٥ ـ

أرض فارس ، وأخذ الطب من أهل تلكم الديار من جنديسابور وغيرها في الجاهلية ، وجاد في هذه الصناعة ، وطبّ بأرض فارس ، وعالج فيها كثيراً ، وشهدأهل تلكم الأرض ـ ممن رآه ـ بعلمه ، واشتهر طبه بين العرب (١) . . وهذا الآخر النضر بن الحارث وهو ابن خالة النبي سافر إلى البلاد الفارسية كأبيه ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأحبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، واطلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضا ما كان يعلمة من الطب وغيره (٢) .

وحتى بعد الاسلام بوقت غير طويل ظلّ العـرب متصلين بالثقافة اليونانية . . فقد كان الحكيم الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموي المتوفى عام ٨٥ هـ من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صنعة (٣) الكيمياء والطب . . وقد ترجمت له جمهرة كبيرة من الكتب الفلسفية والطبيـة والكيماوية . . وخالد هذا أول من عنى بعلوم الفلسفة عناية تامة ، وكان

ـط دار الكشاف ، وصورة ثالثة (بفتحات ثلاث) كما فى لسان العرب ج ٤ ص ٣٨٤ ، وتاج العروس ج ٢ ص ٤٨٦ ، وهذه الصورة أصح الصور وأرجحها .

(١) اخبـار الحكماء لابن القفطي ص ١١١ ـ ١١٢ ط السعادة ، وطبقات الاطباء لابن أبي اصيبعة ج ١ ص ١١٠ ، ومجلة المرشد ص ٦ من المجلد الثاني ، والاعلام للزركلي ج ١ ، وشعراء النصرانية للويس شيخو .

(٢) زهر الآداب للحصري ج١ ص٢٧ ط التجارية وطبقات الأطباء

(٣) غلب استعمال هذه الكلمة لما يطلق عليه الآن (علم الكيمياء) وقد أكثر من استعمالها العرب الأوائل . والمراد بها اليوم هي الكيمياء القديمة .

قد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر ويتفصح بالعربية ، وقد أخذ هؤلاء بدورهم من نقل الكتب في اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي (١) .

ويحكى ان ماسرجويه البصري (٢) كان عالماً في الطب ، وكان في أيامه كتاب في الطب هو كناش (٣) من أفضل الكنانيش ، الفها اهرون ابن أعين (٤) في اللغة السريانية ، فنقلها ماسرجويه إلى العربية ، وهي تحتوي على ثلاثين مقالة ، وزاد عليها ماسرجويه مقالتين (٥) .

---

(١) تجد ترجمة خالد وما كان من أمر الترجمة والنقل في أيامه في اخبار الحكماء ص ٢٨٩ ، وفهرست ابن النديم ص ٣٣٨ و ٤٩٧ ، ومعجم الادباء لياقوت ج ٤ ص ١٦٥ ، وشرح لامية العرب للصفدي ج ١ ص ١٢ ، ووفيات الاعيان ج ١ ص ١٦٨ ، وخطط الشام لمحمد كرد علي ج ٤ ص ٢١ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ١ ص ٢٢٨ ، وعصر المأمون لرفاعي ج ١ ص ٤٧ ، وضحى الاسلام لاحمد أمين ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) هو من معاصري الخليفة الاموي مروان بن الحكم ، وقد يكتب اسمه ماسرجيس .

(٣) الكناش : بضم فتشديد ـ مجموعة كالدفتر تدرج فيها الشوارد والفوائد . والوارد في اللغة تأنيث هذا الاسم .

(٤) قال ابن النديم في الفهرست ص ٤١٣ ط مصر : اهرون القس في صدر الدولة ـ أي الدولة الاموية ـ وعمل كتابه بالسرياني ، ونقله ماسرجيس الخ .

(٥) طبقات الاطباء ج ١ ص ١٠٩ . . قال ابن النديم في الفهرست ص ٤١٣ : ماسرجيس من الاطباء . وكان ناقلا من السرياني إلى العربي وله من الكتب : كتاب قوى الاطعمة ومنافعها ومضارها ، كتاب قوى ـ

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وجد هذه الكناش في في خزائن الكتب بالشام ، فحرضه ذلك على اخراجها إلى المسلمين للانتفاع بها ، فاستخار الله في ذلك أربعين يوماً ثم اخرجها إلى الناس ، وبثها في أيديهم (١) .

وممن عرف بالفلسفة أيام الامويين يحي النحوي . . وكان أسقفاً في الكنائس بمصر ، ويعتقد مذهب النصارى اليعاقبة (٢) ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث (٣) وعاش إلى أن فتحت مصر على يد عمر بن العاص فدخل اليه وأكرمه ، ورأى له موضعاً . . . وعرف عنه انه فسر كتب أرسطو (٤) .

ومنهم اصطفن الحرّاني الراهب . . كان بالموصل في عمر (٥) يقال له ميخاييل ، وقد نقل لخالد بن يزيد كتاب الصنعة ، ذكره ابن بختيشوع في كتابه ، وقال عنه انه كان طبيباً (٦) .

ومنهم يعقوب الرّهاوي السرياني ، وقد ترجم كثيراً من كتب

ـ العقاقير ومنافعها ومضارها .

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ١٩٢ ، وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان ج ٣ ص ١٣٥ ط الهلال نقلا عن تاريخ الحكماء المخطوط .

(٢) انظر عن اليعاقبة الفصل لابن حزم ج ١ ص ٤٩ ط الاولى .

(٣) التثليث هو القول بان الله ثالث ثلاثة هم : الأب ، والابن والروح القدس .

(٤) فهرست ابن النديم ص ٣٥٦ .

(٥) عمر : بضم فسكون ـ البيعة أو الكنيسة .

(٦) أخبار الحكماء ص ٤٢ ، والفهرست ص ٥٠٥ ، وعصر المأمون ج ١ ص ٤٩ ، وطبقات الاطباء .

الالهيات اليونانية (١) :

ومنهم أبو العلاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك . وقد نقل من رسائل أرسطو الى الاسكندر (٢) .

وأول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية - بقطع النظر عن كتب الكيمياء - هو على المحتمل كتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم (٣) وقد فرغ من ترجمته في ذي القعدة سنة ١٢٥ ﻫ (٤) .

وهكذا تبين لنا ان الثقافة اليونانية انتشرت في العصر الاموي في كثير من الحواضر العربية ، كالشام والاسكندرية والعراق ، وامتزج العلماء السريانيون بالولاة الحاكمين من الامويين ، فكان لذلك أثر كبير في تزاوج عقول المسلمين ، وتفتحها على آفاق - تكاد تكون بعيدة - من المعرفة والعلم . . ومن يرجع إلى فهرست ابن النديم ، وإلى الكتب التاريخية الاخرى ، ويتصفح ما فيها من أسماء المؤلفات المترجمة من السريانية واليونانية ، يجد ان لرجال الدولة الاموية قسط وفير في امتداد العقل العربي ، واتصاله بالعقول المثقفة الاخرى .

وما كان تمضي على سقوط الدولة الاموية في الشام ثمانون سنة ، إلا وكان بين يدي العرب مترجمات عن كثير مما كتب أرسطو ، وتعليقات

---

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ١٥٦ ، وعلم الفلك لكرلو نلينو ص ٢٧٩ ط روما .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٣٩ - ٤٠ ط الاولى ، وفهرست ابن النديم ص ١٧١ .

(٣) وجدت نسخة من هذا الكتاب في جملة من نيف والف وستمائة مجلد عربية خط يد ، اقتنتها في شهر نوفمبر عام ١٩٠٩ م الامبرسيانيه في ميلانو من مدن ايطاليا .

(٤) علم الفلك لكرلو نلينو ص ١٤٢ - ١٤٣ .

الذين اشتهروا من رجال « الافلاطونية الجديدة » وقسم من كتب أفلاطون ، والجزء الاكبر من كتب جالينوس ، وأجزاء اخر نقلت عن كتب الاطباء ، وطائفة غيرها من كتب اليونانيين وكتب الهند وفارس (١) .

ويقسم المؤرخون أدوار الترجمة فى العهد العباسي إلى ثلاثة أقسام ، يهمنا هنا ذكر أولها ، وهو يبتدأ من خلافة المنصور ، وينتهى بعهد هارون الرشيد أي من عام ١٣٦ ه إلى عام ١٩٣ ه ، وفى هذا الدور ترجم كتاب كليلة ودمنة (٢) من الفارسية ، والسندهند (٣) من الهندية ، وترجمت باقة من كتب ارسطو في المنطق ، وترجم أيضاً كتاب المجسطي في الفلك (٤) .

---

(١) تاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر ص ٢٧ – ٢٨ .

(٢) ترجمه ابن المقفع ، أنظر الكلام عن الكتاب ضحى الاسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٢١٦ – ٢٢٢ ط الثانية .

(٣) فى الكلام عن صيغة هذه اللفظة وأصلها راجع كتاب علم الفلك للسنيور كرلونلينو ص ١٥٠ – ١٥١ وقد نقل الاب انستاس الكرملي فى مقال له نشر في مجلة المعلم الجديد جزء ٣ سنة ٤ هامش ص ٢٥٧ جميع ما حققه السنيور نلينو ، ولم يعزوه إلى مصدره ، وهذا عمل يخالف ماتقتضيه الامانة التأريخية ، ويدعو اليه الضمير العلمي .

(٤) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٦٤ – وكتاب المجسطي لبطليموس هو الذي عرفنا بتطبيق البراهين على بيان الحركات السماوية ، ووضح كيفية الارصاد ، إلى غير هذا من البحوث التي جعلت الكتاب أشرف وأحسن ما صنف فى علم الفلك حتى ذلك الزمن . . والظاهر ان كتاب المجسطي قد ترجم إلى العربية فى الزمن الاول ثلاث مرات ، فالاولى ترجمة ثابت بن قرة ، والثانية ترجمة قسطا بن لوقا البعلبكي ، والثالثة ترجمة حنين بن –

وكان المنصور الدوانيقي أول من اهتم من خلفاء العباسيين بالنقل والترجمة ، وكان جل إهتمامه بالنجوم والطب . وقد رغب نقلة العلم في ذلك بالبذل الكثير ، وجعل لبعضهم رواتب وجواريا ، وبالغ في إكرام النقلة ومحاسنتهم ، وأكثرهم كان من السريان النساطرة ، لانهم اقدر من غيرهم على الترجمة من اليونانية . وأكثرهم اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني أشهرهم آل بختيشوع سلالة جورجيس بن بختيشوع السرياني النسطوري طبيب المنصور ، ومنهم من نقل من الفارسية إلى العربية ، كابن المقفع وآل نوبخت (١) ، وترجم ابن المقفع كتب ارسطوا المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق (٢) . . وقبل انتهاء القرن الثاني نقل من اليونانية كتاب كتاب الاسرار لمؤلف مجهول الاسم (٣) .

وتطرق الى ماهي العصر العباسي الاول من العلوم المؤرخ المسعودي (٤) فانه قال : ــ ان ذلك العصر كان خصيباً في الترجمة والانتاج الادبي ، فنقل فيه عدة مقالات عن ارسطو ، وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك ، وكتاب اقليدس في الهندسة ، ومواد أخرى عن اليونانية ــ .

وبعد فان الدكتور مصطفى جواد يرد نفسه بنفسه ، وذلك في

ــ اسحاق العبادي . . ثم ترجم بعد ذلك عدة مرات ، حتى وقع في الترجمات شيء كثير من الاختلاف واللبس ، فانبرى الى تنقيح الكتاب العلامة الخواجة نصير الدين الطوسي وطبع كتابه بعنوان ــ تحرير المجسطي ــ ثم جاء العالم الفاضل عبد العلي بن محمد بن الحسين فشرح التحرير وشرحه مخطوط محفوظ في خزانة معالي السيد صادق كمونة .

(١) تأريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) طبقات الامم لصاعد الاندلسي ص ٧٧ ط السعادة .

(٣) علم الفلك لكرلو نلينو ص ٢١٩ .

(٤) في كتابه مروج الذهب ج ٨ ص ١٩١ ــ ١٩٢ ط ليبزج .

كتاب ـ تاريخ العرب ـ الذي اشترك في تأليفه هـو وجماعة من اخوانه الفضلاء. فجاء في الكتاب المذكور ص ٢٦ ط العاني في الكلام عن سيرة العرب قبل الاسلام ـ . . وكان للعرب ثقـافة تمثل نتيجة ما أفادوه من غيرهم، فكانوا يعرفون أخبار الامم، كما كانوا يعرفون شيئاً من السير والتأريخ والقصص والاساطير. وكان منهم من يعرف اللغات الأجنبية والآرامية والفارسية والرومية، وعددهم قليل . . ـ ثم يتطرق الدكتور وجماعته في ص ١٦٢ ـ ١٦٣ إلى حديث الترجمة في العصر الأموي، وما نقل من الكتب الطبيعة والكيماوية.

وهكذا يظهر لنا واضحاً جلياً ان حركة الترجمة والنقل كانت تسبق عهد الامام الصادق، بل ان العرب كانوا على علم تام بالثقافة اليونانية في أيامه والامام عاصر تلك النهضة العلميـة في عصر المنصور، وكان له في تسيير دفتها نصيب كبير، حتى قال عنه السيد أمير علي (١) : ـ . . ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى بالامام جعفر والملقب بالصادق، وهو رجل رحب افق التفكير بعيد اغوار العقل، ملم كل الالمـام بعلوم عصره، ويعتـبر في الواقع أول من ابس المدارس المشهورة في الاسلام ـ .

يضاف الى ذلك انه ورد في اخبـار الامام الصادق ما يدل على اطلاعه الوافر على جملة من اللغات الأجنبية (٢) فلا نستبعد معرفته باللغة

---

(١) في كتابه ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ـ ص ١٧٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر.

(٢) انظر في ذلك ما رواه عمار الساباطي عن معرفة الصادق بالقبطية، وماروواه أبان بن تغلب عن المـام الصادق باللسان الفارسي والنبطي والحبشي والصقلبي (البحار ج ١١ ص ٩٥ ـ ٩٦. وبصـائر الدرجات ج ٧ الباب ١١).

اليونانية ، والعقل لا يمنع ذلك على مثل الصادق وما له من المنزلة الثقافية الكبيرة ، وعن طريق معرفته باللغة اليونانية اتصل بآدابها وعلومها ، واثبت عدداً من أسماء اليونانيين وكلماتهم في كتاب « توحيد المفضل »

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن للشيعة الامامية رأيا خاصا في أئمتهم ، ويذهبون فى علمهم مذهبا لا يخضع لما يقرره الدكتور مصطفى جواد ، من لزوم انتشار العلم بين الناس ، حتى يتسنى للامام أن يحصله على يد أساتذة علماء ، ثم يمليه على تلاميذه وطلابه (١) . . . والامام يجب أن يكون ـ على رأي الامامية ـ عالما بكل شيء ، واعلم الناس في علم وفي لسان وفي لغة (٢) وان الامام مرجع العالم فى كل شيء ، ويجوز أن يسألوه عن كل شيء ، فيجب أن يكون عنده علم كل شيء (٣) .

٧ ـ كتاب توحيد المفضل :

كان الباعث للامام الصادق على وضع كتاب التوحيد : ان المفضل كان جالسا ذات يوم في روضة القبر النبوي فاذا هو بجماعة من الزنادقة فيهم عبد الكريم بن أبي العوجاء (٤) فيدور الحديث بينهم فى قضايا الحادية

(١) راجع مقال السيد محمد حسين الصافي المنشور في مجلة الغري العدد ٢ ـ ٣ السنة ١١ .

(٢) كتاب الصادق للشيخ محمد حسين المظفر ج ١ ص ٢١٢ .

(٣) الشيعة والامامة للمظفر ص ٢٠ ط الغري .

(٤) أنظر أحواله وآراءه فى كتاب الاحتجاج للطبرسي ص ١٨٠ و١٨١ ط ايران وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٧٥ وما بعدها ط ليدن وفهرست ابن النديم ص ٣٣٨ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٥٥ ط محمد بدر ، ودائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٨١ ، وأمالي المرتضى ج ١ .

عنيفة ، تثور لها ثائرة الايمان في قلب المفضل ، ويتوجه ـ بعد نقاش حاد جرى بينه وبين ابن أبي العوجاء ـ إلى دار الامام الصادق ليخبره بجلية الأمر . فما عتم الصادق ان أملى عليه كتاب التوحيد الذي ينتظم من اربعة مجالس في أربعة أيام ، من الغدوة إلى الزوال .

وهذا الذي بين أيدينا من كتاب التوحيد له تتمة أو جزء ثان ، لأن الامام وعد المفضل أن يملي عليه حديثا آخر عن علم ملكوت السماوات والارض وما خلق الله بينهما الخ . وقد رأينا هذا الجزء الثاني من التوحيد مطبوعا بتمامه في « تباشير الحكمة » ـ فارسي طبع بايران سنة ١٣١٩ هـ ـ تأليف السيد ميرزا أبي القاسم الذهبي الشيرازي المتوفى سنة ١٢٨٦ هـ . ولم يمكنا الوقت الضيق من درس هذا الجزء والوقوف على ابحاثه بشكل دقيق

ولم يغفل العلماء والفضلاء عن مراجعة كتاب التوحيد ، والارتشاف من منهل علم الامام ، وقد تطرق إلى ذكره جماعة من اولئك العلماء والفضلاء نذكر منهم :

١ ـ أبو العباس أحمد بن علي النجاشي المتوفى عام ٤٥٠ هـ في رجاله ص ٢٩٦ ط بمبي .

٢ ـ رضي الدين علي بن طاووس المتوفى عام ٦٦٤ هـ في كتابه الامان من أخطار الاسفار والازمان ص ٧٨ ط الحيدرية في النجف وفي كتابه الآخر كشف المحجة ص ٩ ط الحيدرية في النجف .

٣ ـ محمد تقي المجلسي المتوفى عام ١٠٧٠ هـ في كتاب شرح المشيخة ـ مخطوط ـ وقد شرحه باللغة الفارسية .

٤ ـ محمد باقر المجلسي المتوفى عام ١١١٠ هـ في كتابه بحار الانوار ج ٢ ص ١٧ ـ ١٨ .

وطبع كتاب التوحيد نحو سبع مرات ، منها طبعة مصر على الحجر وطبعة النفاسة باستنبول والجوائب المصرية وطهران والهند والآداب

ببغداد ، والحيدرية بالنجف ، وكانت مظنته في الطبعة الاخيرة كتاب (بحار الانوار) وقوبلت بنسخة خطية من كتاب التوحيد هي ملك الصديق الاستاذ الخطيب السيد عبد الامير الاعرجي كتبت فى ١٤ جمادى الاولى عام ١٢٦٨ هـ .

٨ ـ مقارنة بين توحيد المفضل وأسلوب الجاحظ :

ما كان الوهم ليختلج في ذهن الدكتور مصطفى جواد عن توحيد المفضل ، لولا ان محمد راغب الطباخ قدطبع التوحيد منسوبا إلى الجاحظ بالمطبعة العلمية بحلب في ٢٩ شعبان سنة ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م تحت عنوان (الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير) . . وما ان رأى الدكتور هذه النسخة حتى راح يعتقد ان كتاب التوحيد من تأليف الجاحظ حقاً وحقيقة مع انه سبق ان ذكرنا أنه طبع فى مختلف مطابع العالم الاسلامي وفي شتى أنحائه منذ نيف ومائة وخمسين عاماً ، ولو لم يكن مشهوراً ومعروفاً عند أهل النظر والعلم فى الهند ومصر وتركيا وايران والعراق لما قاموا بطبعه وصححوا نسبته إلى الامام الصادق .

ونحن اذا أجلنا الطرف بين صفحات كتاب التوحيد ، واستقرينا جميع ما فيه من بحوث ومسائل ، وقارناها بكتابات الجاحظ ، وتمعنا فى كل ذلك تمعنا بسيطاً ، لرأينا البون شاسعاً بينهما ، والفرق كبيراً ظاهراً لكل ذي بصيرة . . وللتثبت من ذلك والاستدلال عليه نحيل القارىء إلى ما كتبه الجاحظ في صدد الكلام عن مشفر الفيل وخرطومه (١) وما كتبه الامام الصادق في الموضوع نفسه (٢) وقارن أيضاً بين ما قاله الجاحظ عن

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٧ ص ٣٨ ط السعادة بمصر .

(٢) راجع توحيد المفضل ص ٤١ .

النحل (١) وما خاطب به الصادق المفضل في البحث ذاته (٢) ، وقارن مرة ثالثة بين ما ذكره الجاحظ في وصف العنكبوت (٣) وما وصف به الصادق طبائع هذا الحيوان العجيب (٤) .

ان هذه المقارنة تعطينا نظرة اجمالية عما بين أسلوب الجاحظ والصادق من التنافر والبعد ، فان الجاحظ في مثل هذه الموضوعات يبدو حريصاً على تجميل الكلام وتنميق الاسلوب ، وطالما نراه يستعمل الحذلقة والتظرف في المناقشة مع شيء غير قليل من التماجن والدعابة والسخرية . أما الامام الصادق فانه مسترسل في كلامه كل الترسل ، سمح في عبارته كل السماحة .

ثم ان في كتاب التوحيد تناسق في البحوث ، ووحدة موضوعية منعدمة في مؤلفات الجاحظ ، لان الجاحظ يتبع طريقة الاستطراد ويبتعد كثيراً عن صلب الموضوع .

ولو كان كتاب التوحيد للجاحظ حقاً ، لأودع فيه شيئاً من آرائه الخاصة في الاعتزال ، أو آراء بعض أئمة المعتزلة ، وما لهم من عقائد في باب الحكمة والتدبير في الخلق ، كما هو شأنه في بحوثه الكلامية . . . وبعكس ذلك نرى روح التشيع متجلية ظاهرة في كتاب التوحيد ، وان سهولة عبارته أقرب ما تكون ميلا إلى أسلوب الامام الصادق والافكار التي كان يمليها على المئات من تلاميذه وأصحابه .

والجاحظ كان يتناول الافكار بروح يبدو أنه خال من حرارة الايمان ، وانه يأتي الفن بقصد العبث والتلاعب ، واظهار المقدرة

(١) كتاب الحيوان ج ٥ ص ١١٦ .
(٢) توحيد المفضل ص ٥٢ - ٥٣ .
(٣) كتاب الحيوان ج ٥ ص ١٢٤ .
(٤) توحيد المفضل ص ٤٧ .

البيانيـة ، وهي روح تفصيه عن مكان الكاتب ذي الرسالة السامية ، والذي يقول ويعني ما يقول ، ثم يؤمن بما يقول ، لذلك لا يحس قارىء الجاحظ إلا بالنشوة تخامره ، وباللذة تساوره ، وبالاعجاب بقدرة هذا الفنان ، ان اخرج من الحق باطلا ، ومن الباطل حقا . لكنه مع هذا يعجز أن يحمل القارىء على الايمان بما يرى ، والتصديق لما يقول (١) والجاحظ اذا أخضع مختلف المواضيع لاسلوبه ، لم يخضع بينها الفلسفة بحدودها ومصطلحاتها وتعاريفها وانما تناولها تناول أديب يتفلسف (٢)

وكتاب التوحيد وان لم يكن موضوعه فلسفيا ، فهو من النتائج الفلسفية البعيدة الاغوار التي لا ينتهي اليها إلا من اؤتي حظا عظيما من الفهم والدراية بشؤون هذا الخلق ، وأحوال هذا العالم ، مما هو داخل في حظيرة علم المعقول .. والجاحظ ليس أهلا لخوض مثل موضوع كتاب التوحيد والوقوف عند أمثاله موقف العاجم لعوده ، الغائص في اغواره الكاشف عن مبهماته ، العارف باصوله وفروعه .

٩ ـ مقارنة أخرى بين توحيد المفضل وأخبار الصادق :

ولقد جاء في أخبار الامام الصادق ـ المروية في الموسوعات الكبيرة والمثبتة في أمهات الكتب ـ الكثير مما يشابه المسائل العلمية التي تضمنها توحيد المفضل ، ويقارب ما احتوى عليه من موضوعات في الطبيعة .. فمن ذلك ما أثبته المجلسي (٣) في حديث رواه سالم الضرير في ان نصرانيا سأل الصادق عن تفصيل الجسم ، وجواب الامام له جوابا لا يعدو المراد

---

(١) ، (٢) أبو حيان التوحيدي لعبد الرزاق محي الدين ص ٣٥٠ ط السعادة .

(٣) راجع بحار الأنوار ج ١١ ص ١٢٨ .

منه ما حدث به المفضل في موضوع أعضاء البدن وفوائد كل منها (١) ومثل ذلك ماسأل به أبو حنيفة الامام الصادق عن الشمس والقمر وحديث هشام الخفاف، وتوجيه الصادق اليه بعض الأسئلة في حركات النجوم، وعجزه عن الجواب، ثم تفصيله هو الجواب عما سأل به (٢) وهذا كله مشابه كل الشبه لما تكلم به الصادق مع المفضل في المجلس الثالث (٣) بل لا يعدو أن تكون المضامين متفقة إتفاقا يدل دلالة قوية على ان البحثين قد صدرا من فيض علم رجل واحد.

أما كتاب الاحتجاج للطبرسي ١٨٠-٢٠٦ ط النجف فتجد فيه كثيراً من أحاديث الامام الصادق، واحتجاجاته الجمة مع كثير من زنادقة عصره، وأنت تستطيع أن ترى شدة المشابهة بين تلك الاحتجاجات وبين أكثر المواضيع التي طرقها الامام في كتاب التوحيد.

١٠ ـ الاسماعلية وكتاب التوحيد:

كان الاسماعيليون في المرحلة الاولى من دعوتهم الثورية العقائدية قد تبدوا مكافحة الالحاد، والقيام بصد الموجة الطاغية التي اجتاحت الفكر الاسلامي من جماعة الشكاكين والملحدين الذين كانوا يذهبون إلى انكار القوة الخالقة وبعث الرسل، وأمثال ذلك من الامور التي تتصل بالغيبيات والالهيات.

وقد ابتدأت هذه الحركة من جانب الاسماعيليين منذ ان وضعت الرسائل الرمزية بالاسم الموهوم جابر بن حيان في أوائل القرن الثالث للهجرة، وامتدت إلى عهد داعي دعاتهم الاول ذي العقل الموسوعي

(١) توحيد المفضل ص ١١ ط الحيدرية.

(٢) أنظر البحار ج ١١ ص ١٢٧ وص ١٣٠.

(٣) توحيد المفضل ص ٥٥ وص ٥٦.

(الانسكلو بيدي) مؤيد الدين الشيرازي (١) ومجالسه المؤيدية المعروفة صورة واضحة تمثل لنا الحرب العوان التي شنها الاسماعيليون على الالحاد والملحدين والتشكيك والشكاكين .

والذي يظهر لدينا ان الاسماعيليين قد ظفروا بكتاب التوحيد ، فوجدوا فيه ظالتهم المنشودة وأملهم المرجو ، فكتبوا منه عدة مئات من النسخ ، وبثوه بين جماعاتهم وعمموه على أنصارهم ، للدرس عليه والأخذ منه

ويظهر لدينا مرة أخرى بان واحداً من اولئك الدعاة الاسماعيليين المثقفين قد قرأ كتاب التوحيد ، وسحره كثيراً ، حتى لقد بدا له أن يغشيه ثوباً اسماعيليا خاصا ، فكتب له مقدمة قصيرة حشاها ببعض المصطلحات الاسماعيلية وأضاف له الآراء العامة التي يعتقدها أصحاب هذه الفرقة . . فعل ذلك من أجل الدعوة إلى مذهبه ، واشاعته فى أكثر عدد ممكن من الناس .

ونحن نستطيع أن نتعرف على هذه الزيادات التي أضافها الاسماعيليون على أصل كتاب التوحيد ، كالذي جاء في مقدمة المجلس الرابع من كلمات مثل هذه (صاحب السر المستور (٢) والغيب المحظور) .

بل ان الشك ليساورنا فى المجلس الرابع كله . . . فالذي نخاله ان

---

(١) المؤيد فى الدين هبة الله بن أبي عمران الشيرازي الاسماعيلي ، داعي الدعاة فى عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، ولد في شيراز وتنقل فى أكثر المناطق الاسلامية ، حتى سكن مصر وتوفى بها عام ٤٧٠م . أما مجالسه التي أشرنا اليها فقد عثر الدكتور حسين الهمداني على ثمانية مجلدات منها وهي تشتمل على ٨٠٠ مجلس وكل مجلس عبارة عن محاضرة كان يلقيها مؤيد الدين في دار العلم بالقاهرة .

(٢) يقول مؤيد الدين الشيرازي عن نفسه كما في ديوانه المخطوط :

رضيت التستر لي مذهباً   وما ابتغي عنه من معدل

هذا المجلس كله من وضع الاسماعيليين ، فهو لا ينسجم مع مجالس الكتاب الاولى من جهة ، وما فيه من آراء لم تعرف عن الامام الصادق من جهة أخرى ، مع ملاحظة ان موضوعات هذا المجلس متأثرة بفلسفة فيثاغورس العددية التي كان ينهل من نميرها الاسماعيليون ، بينما الشيعة الاثنى عشرية يواكبون المشائين والرواقيين والاشراقيين .

أما المقدمة التي أضافها أحد الاسماعيليين فنجد فيها مثل هذه الكلمات (امام عصرنا المقيم دعوة الحق بالمطلقين الدعاة) وكذلك هذه الكلمات : (أيد الله داعي هذا الوقت بالمواد اللطيفة والبركات) ومثل هذه المقدمة وتلك الكلمات تبدو لنا دخيلة على كتاب التوحيد ، ولا صلة لها بصلب البحث الذي تدور حوله موضوعات الكتاب .

ولما رجعنا إلى النسخة الخطية من كتاب التوحيد التي يقتنيها الاخ الاستاذ الاعرجي ، وجدناها خالية من المقدمة الاسماعيلية ، وكذلك لم نجدها في كتاب بحار الانوار ، فاقتضى التنبيه على ذلك .

النجف الأشرف ١٠/٧/١٩٥٠ كاظم باقر المظفر

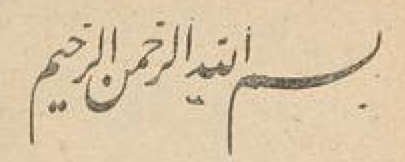
بسم الله الرحمن الرحيم

قلنا فيما سبق ان هذه المقدمة ليست لها
أية صلة بالكتاب ، وانما وضعها
أحد الاسماعيليين في عصر متأخر عن
الامام الصادق عليه السلام . .

الحمد لله الذي أوجد الموجودات ، وجعل فيها دلائل ربوبيته واضحات شاهدات ، وصلى الله تعالى على محمد رسوله إلى كافة الناس بالبينات الجالية القلوب إلى الاقرار بالباري ، وللجاحدين رادعات صادات ، وعلى الأئمة من ذريته سادة الخلق وهم إلى ذي الحق هداة ، وعلى امام عصرنا المقيم دعوة الحق بالمطلقين الدعاة ، وأيد الله داعي هذا الوقت بالمواد اللطيفة والبركات

﴿ أما بعد ﴾ : فهذا كتاب يشتمل على حكمة الباري جل وعلا في خلق العالم ومواليده ، الذي يسكن اليه المؤمنون ، ويتحير فيه الملحدون لما فيه من صواب القول وسديده ، الذي ذكره الصادق عليه السلام للمفضل وهو مقطوع أول ورقة منه والموجود مايليه هذا وهو نصه وشرحه

« كتاب توحيد المفضل »



كلام ابن أبي العوجاء مع صاحبه

روى محمد بن سنان (١) قال : حدثني المفضل بن عمر (٢) قال : كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر ، وانا مفكر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله ، من الشرف

(١) هو أبو جعفر الزاهري . ذكر الكشي في شأنه ما يدل على مدح عظيم وعلى قدح أيضاً ، وذكر انه روى عنه جماعة من العدول والثقات من أهل العلم والانصاف ، وجميع الروايات المجرحة له واهية ساقطة ، فقد أشار الكثير إلى قوته والذب عنه ، وتفنيد ما قيل فيه من الضعف . وان اجتماع الاعيان على الرواية عنه أدل شيء على كمال قوته عده الشيخ المفيد من خاصة الامام الكاظم وثقاته وأهل الورع والعلم والفقه من شيعته كما عده الشيخ في الغيبة من الوكلاء المرضيين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، بل مضوا على منهاج الائمة ، وفي الخلاصة كان مكفوف البصر أعمى توفي عام ٢٢٠ هـ .

(٢) مضت ترجمة المفضل بصورة مفصلة في المقدمة .

والفضائل ، وما منحه وأعطاه وشرّفه وحباه ، مما لا يعرفه الجمهور من الأمة ، وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته ، وخطير مرتبته ، فاني لكذلك إذ أقبل « ابن أبي العوجاء » (١) فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به المجلس إذ رجل من أصحابه قد جاء فجلس اليه ، فتكلم « ابن أبي العوجاء » فقال : لقد بلغ صاحب هذا القبر العزّ بكماله ، وحاز الشرف بجميع خصاله ، ونال الحظوة في كل أحواله ، فقال له صاحبه : انه كان فيلسوفاً ادعى المرتبة العظمى ، والمنزلة الكبرى ، وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول ، وضلّت فيها الاحلام ، وغاصت الألباب على طلب علمها في بحار الفكر ، فرجعت خاسئات وهي حسّر ، فلما استجاب لدعوته

---

(١) هو عبد الكريم بن أبي العوجاء ربيب حماد بن سلمة على مايقول ابن الجوزي ومن تلامذة الحسن البصري ، وذكر البغدادي انه كان مانويا يؤمن بالتناسخ ويميل الى مذهب الرافضة (!) ويقول بالقدر ، ويتخذ من شرح سيرة ماني وسيلة للدعوة ، وتشكيك الناس في عقائدهم ، ويتحدث في التعديل والتجوير على ما يذكر البيروني . ومن هنا يتبين ان ابن أبي العوجاء هذا كان زنديقاً مشهوراً بذلك . وله مواقف حاسمة مع الامام الصادق ، أفحمه الامام في كل مرة منها ، سجنه والي الكوفة محمد بن سليمان ثم قتله في أيام المنصور عام ١٥٥ ﻫ ، وقيل عام ١٦٠ ﻫ في أيام المهدي تجد ذكره في تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٧٥ ط ليدن ، وفهرست ابن النديم ص ٣٣٨ ، والفرق بين الفرق ص ٢٥٥ ط محمد بدر ، ودائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٨١ ، واحتجاج الطبرسي ص ١٨٢ و١٨٣ ط النجف ، وما للهند من مقولة ص ١٣٢ .

العقلاء والفصحاء والخطباء ، دخل الناس في دينه أفواجا ، فقرن إسمه باسم ناموسه (١) فصار يهتف به على رؤوس الصوامع ، في جميع البلدان والمواضع ، التي انتهت اليها دعوته ، وعلتها كلمته ، وظهرت فيها حجته براً وبحراً ، سهلاً وجبلاً . في كل يوم وليلة خمس مرات مردداً في الأذان والأقامة ، ليتجدد في كل ساعة ذكره ، ولئلا يخمل أمره .

فقال « ابن ابي العوجاء » : دع ذكر محمد صلى الله عليه وعلى آله فقد تحير فيه عقلي ، وضلّ في أمره فكري . وحدثنا في ذكر الاصل الذي نمشي له . . ثم ذكر إبتداء الأشياء ، وزعم ان ذلك باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، ولا صانع ولا مدبر ، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر ، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال ! .

محاورة المفضل مع ابن ابي العوجاء

« قال المفضل » : فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً ، فقلت : يا عدو الله ألحدت في دين الله ، وأنكرت الباري جل قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم ، وصوّرك في أتم صورة ، ونقلك في أحوالك حتى بلغ إلى حيث انتهيت .

فلو تفكرت في نفسك وصدقك (٢) لطيف حسك ، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة ، وشواهده جل وتقدس في خلقك واضحة ، وبراهينه لك لائحة ، فقال : يا هذا ان كنت من أهل الكلام

---

(١) الناموس : الشريعة .

(٢) صدقك : أي قال لك صدقاً .

كلمناك ، فان ثبتت لك حجة تبعناك ، وان لم تكن منهم فلا كلام لك ، وان كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تخاطبنا ، ولا بمثل دليلك تجادل فينا ، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت ، فما أفحش في خطابنا ، ولا تعدى في جوابنا وانه للحليم الرزين ، العاقل الرصين ، لا يعتريه خرق (١) ولا طيش ولا نزق (٢) يسمع كلامنا ، ويصغي الينا ويتعرف حجتنا ، حتى اذا استفرغنا (٣) ما عندنا ، وظننا إنا قطعناه ، دحض حجتنا بكلام يسير ، وخطاب قصير ، يلزمنا به الحجة ، ويقطع العذر ، ولا نستطيع لجوابه ردا ، فان كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه

سبب املاء الكتاب على المفضل

قال المفضل : فخرجت من المسجد محزوناً مفكراً فيما بلي به الاسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها (٤) فدخلت على مولاي عليه السلام فرآني منكسراً فقال : ما لك ؟ فاخبرته بما سمعت من الدهريين (٥) وبما

---

(١) الخرق : ضعف الرأي وسوء التصرف والحمق .

(٢) النزق : هو الطيش والخفة عند الغضب .

(٣) لعله من الافراغ بمعنى الصب . يقال : استفرغ مجهوده ، أي بذل طاقته .

(٤) التعطيل : مصدر ، وفي الاصطلاح الديني هو انكار صفات الخالق الباري ، والمعطلة : هم اصحاب مذهب التعطيل .

(٥) واحد الدهري ، وهو الملحد الذي يزعم بان العالم موجـود أزلا وأبداً .

رددت عليها . فقال : يا مفضل لألقين عليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس اسمه في خلق العالم ، والسباع ، والبهائم ، والطير ، والهوام ، وكل ذي روح من الأنعام والنبات (١) والشجرة المثمرة ، وغير ذات الثمر والحبوب ، والبقول ، المأكول من ذلك وغير المأكول ، ما يعتبر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون : ويتحير فيه الملحدون، فبكر علي غدا

---

(١) العطف التشريكي هنا يكشف عن رأي الامام الصادق في النبات وان له روحاً ، وبعبارة اخرى ان لديه حسا وحركة . ولم تكتشف هذه النظرية العلمية إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وأول من قال بان فى النبات حسا تشله السموم وتميته الكهربية هو « بيشا » العالم الفسيولوجي الفرنسي المتوفى عام ١٨٠٢ م (عجائب الخلق لزيدان ص ٩٣) وقد ثبتت هذه النظرية بوجود بعض الأزهار المتفتحة نهاراً والمقفلة ليلا (ص ٦٢٥ من كتاب التأريخ الطبيعي) وقام عالم هندي هو (السرجفادس بوز) بوضع آلة دقيقة تظهر بها حركات النبات ، وما يتأثر به من المؤثرات الخارجية ، كالمنبهات والمخدرات ، وانشأ هذا العالم معهداً كبيراً في (كلكتا) لدرس حركات النبات ، وانفعاله بالحر والبرد والظلمة والنور - فصول فى التاريخ الطبيعي للدكتور يعقوب صروف ص ٤٩ - وقد أصبح من المشهور وجود بعض نباتات تفترس بعض الحشرات والحيوانات الصغيرة ، وتوجد أيضا أزهار تضحك وأخرى تبكي - ص ١٠٢٠ من السنة السادسة والثلاثين لمجلة الهلال - وأمثلة ذلك النبتة المستحية وندى الشمس وأعجوبة القدر والاباريق ومصيدة الذباب واللقاح وغير هذه . وفى مقدمات كتابنا (في دنيا النبات) وضعنا فصلا طريفاً عن طبائع النبات وحركاته ، ومنه اقتبسنا هذه الكلمات .

المجلس الاول

« قال المفضل » : فانصرفت من عنده فرحاً مسروراً ، وطالت علي تلك الليلة انتظاراً لما وعدني به ، فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لي فدخلت ، وقمت بين يديه ، فأمرني بالجلوس ، فجلست ، ثم نهض إلى حجرة كان يخلو فيها ، ونهضت بنهوضه ، فقال : اتبعني ، فتبعته ، فدخل ودخلت خلفه ، فجلس وجلست بين يديه ، فقال : يا مفضل كأني بك وقد طالت عليك هذه الليلة انتظاراً لما وعدتك ، فقلت : أجل يامولاي فقال : يا مفضل ان الله تعالى كان ولا شيء قبله وهو باق ولا نهاية له ، فله الحمد على ما ألهمنا ، والشكر على مامنحنا ، فقد خصنا من العلوم باعلاها ومن المعالي باسناها ، واصطفانا على جميع الخلق بعلمه ، وجعلنامهيمنين (١) عليهم بحكمه ، فقلت : يا مولاي أتأذن لي أن أكتب ما تشرحه - وكنت أعددت معي ما اكتب فيه - فقال لي : افعل يا مفضل .

﴿ جهل الشكاك باسباب الخلقة ومعانيها ﴾

ان الشكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة ، وقصرت افهامهم

---

(١) جمع مهيمن وهو الامين والمؤتمن والشاهد .

عن تأمل الصواب ، والحكمة فيما ذرأ (١) الباري جل قدسه ، وبرأ (٢) من صنوف خلقه في البر ، والبحر ، والسهل ، والوعر ، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود ، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود ، حتى انكروا خلق الأشياء ، وادعوا ان تكّونها بالاهمال ، لا صنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر ، ولا صانع ، تعالى الله عما يصفون ، وقاتلهم الله انى يؤفكون (٣) فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بُنيت أتقن بناء وأحسنه ، وفُرشت بأحسن الفرش وافخره ، وأُعدّ فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج اليها ولا يستغنى عنها ، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير ؛ وحكمة من التدبير ، فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً ، ويطوفون بيوتها ادباراً واقبالاً ، محجوبة أبصارهم عنها ، لا يبصرون بنية الدار ، وما أعدّ فيها وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه ، وأُعد للحاجة اليه ، وهو جاهل للمعنى فيه ولما أعد ولماذا جعل كذلك ؟ فتذمر وتسخط ، وذم الدار وبانيها . فهذه حال هذا الصنف في انكارهم ما انكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة . فانهم لما عزبت (٤) أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الاشياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم حيارى ، فلا يفهمون

---

(١) ذرأ الله الخلق : خلقهم .

(٢) برأه : خلقه من العدم .

(٣) أي ينصرفون عن الحق .

(٤) أي غابت .

ما هو عليه من اتقان خلقته ، وحسن صنعته ، وصواب هيئته . وربما وقف بعضهم على الشيء يجهل سببه ، والأرب (١) فيه ، فيسرع إلى ذمه ووصفه بالاحالة والخطأ ، كالذي أقدمت عليه المنانية (٢) الكفرة ، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة ، وأشباههم من أهل الضلال المعللين أنفسهم بالمحال (٣) فيحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ، وهداه لدينه ، ووفقه لتأمل التدبير في صنعة الخلائق ، والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التقدير ، بالدلالة القائمة الدالة على صانعها ، ان يكثر حمد الله مولاه على ذلك ، ويرغب اليه في الثبات عليه والزيادة منه فانه جل اسمه يقول (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

---

(١) الارب : ـ بالفتح ـ المهارة أو الحاجة .

(٢) أو المانوية : هم أصحاب الحكيم الفارسي ماني بن فاتك الذي ظهر في أيام سابور « ثاني ملوك الدولة الساسانية » ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية ، وقد تبعه في معتقده خلق كثير ، وبقي قسم كبير منهم في الدور العباسي الاول ثم تسربت آراؤه إلى أوربا وبقية الاقطار الاسيوية وماني هذا كان راهباً بحران ولد حوالي عام ٢١٥ م وقتله بعدئذ بهرام بن هرمز . انظر في ذلك الملل والنحل للشهرستاني ج٢ ص ٨١ ومروج الذهب ج١ ص ١٥٥ ، والفهرست ص ٤٥٦ ، ومعرب الشاهنامة ج٢ ص ٧١ ، والفرق بين الفرق ص ١٦٢ و٢٠٧ ، والآثار الباقية للبيروني ص ٢٠٧ ، وتاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر ص ٣٩ ، وحرية الفكر لسلامة موسى ص ٥٥ .

(٣) أي الشاغلين أنفسهم عن طاعة ربهم بأمور يحكم العقل السليم باستحالتها .

لشديد) (١) .

تهيئة العالم وتأليف أجزائه

يا مفضل أول العبر والدلالة على الباري جل قدسه ، تهيئة هـذا العالم ، وتأليف أجزائه ونظمها (٢) على ما هي عليه ، فانك اذا تأملت العالم بفكرك وخبرته بعقلك ، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج اليه عباده ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم مضيئة (٣) كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر ، وكل شيء فيها لشأنه معد ، والانسان كالمملك ذلك البيت ، والمخوّل (٤) جميع ما فيه . وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه . ففى هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة ، وان الخالق له واحد ، وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعض جل قدسه وتعالى جده وكرم وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون ، وجل وعظم عما ينتحله الملحدون .

خلق الانسان وتدبير الجنين في الرحم

نبدأ يا مفضل بذكر خلق الانسان فاعتبر به . . فاول ذلك ما يدبر به الجنين فى الرحم ، وهو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة

---

(١) سورة ابراهيم آية ٧ .
(٢) الضمير راجع إلى الاجزاء .
(٣) في نسخة منضودة أي جعل بعضها فوق بعض فهي منضودة .
(٤) من التخويل وهو الاعطاء والتمليك .

الرحم ، وظلمة المشيمة (١) ، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ، ولا دفع أذى ، ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة : فانه يجري اليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات . فلا يزال ذلك غذاؤه .

كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع اسنانه وبلوغه

حتى اذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوى أديمه (٢) على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق (٣) بامه فازعجه أشد ازعاج واعنفه حتى يولد ، فاذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم امه إلى ثدييها وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء ، وهو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته اليه ، فحين يولد قد تلمظ (٤) وحرك شفتيه طلباً للرضاع : فهو يجد ثدي امه كالأداوتين (٥) المعلقتين لحاجته فلا يزال يغتذي باللبن ، ما دام رطب البدن رقيق الامعاء لين الاعضاء . حتى اذا تحرك ، واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه ، طلعت له الطواحن من الاسنان والاضراس (٦) ليمضغ (٧) بها الطعام ، فيلين

---

(١) المشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة ، جمعه مشيم ومشايم . (٢) الاديم : الجلد المدبوغ .

«٣» الطلق « بسكون الثاني » وجع الولادة .

«٤» تلمظ : اذا أخرج لسانه فمسح به شفتيه .

«٥» الاداوة : - بكسر ففتح - إناء صغير من جلد يتخذ للماء ، جمعه أداوى . «٦» الطواحن : هي الاضراس ، وتطلق الاضراس غالبا على المآخير والاسنان على المقاديم ، كما هو الظاهر هنا ، وان لم يفرق اللغويون بينهما «٧» مضغ الطعام : لاكه بلسانه .

عليه . ويسهل له اساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك ، فاذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر فى وجهه ، فكان ذلك علامة الذكر ، وعزّ الرجل الذي يخرج به من حد الصبا وشبه النساء . وان كانت انثى يبقى وجهها نقياً من الشعر ، لتبقى لها البهجة ، والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه .

اعتبر يا مفضل فيما يدبّر به الانسان في هذه الأحوال المختلفة ، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالاهمال ؟ أفرأيت لو لم يجر اليه ذلك الدم وهو في الرحم ، ألم يكن سيذوى ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء ، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالموؤد (١) فى الأرض ؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعا أو يغتذي بغذاء لا يلائمه ، ولا يصلح عليه بدنه ، ولو لم تطلع له الاسنان فى وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام واساغته . او يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل ؟ ثم كان يشغل امه بنفسه عن تربية غيره من الاولاد ،

حال من لا ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك

ولو لم يخرج الشعر فى وجهه فى وقته ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء ، فلا ترى له جلالة ولا وقاراً ؟

قال المفضل فقلت له : يا مولاي فقد رأيت من يبقى على حالته ولا ينبت الشعر في وجهه وان بلغ الكبر ، فقال عليه السلام (ذلك بما

«١» وأد البنت : دفنها في التراب وهي حية ، كما كان العرب يفعلون ذلك فى العهد الجاهلي .

قدّمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد) (١) فمن هذا الذي يرصده (٢) حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب إلا الذي انشأه خلقا ، بعد ان لم يكن ، ثم توكل له بمصلحته بعد ان كان ، فان كان الاهمال يأتي بمثل هذا التدبير ، فقد يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال ، لأنهما ضد الاهمال وهذا فظيع من القول وجهل من قائله . لأن الاهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنظام (٣) تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً

حال المولود لو ولد فهما عاقلا وتعليل ذلك

ولو كان المولود يولد فهماً (٤) عاقلا ، لأنكر العالم عند ولادته ولبقي حيراناً تائه العقل اذا رأى ما لم يعرف ، وورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم من البهائم والطير ، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد

«١» سورة آل عمران آية ١٨٢ .

«٢» يرصده : أي يرقبه .

«٣» اي اذا لم تكن الأشياء منوطة باسبابها ، ولم ترتبط الامور بعللها ، وكما جاز أن يحصل هذا الترتيب والنظام التام بلا سبب ، فجاز أن يصير التدبير في الامور سبباً لاختلامها . وهذا خلاف ما يحكم به العقلاء لما يرون من سعيهم في تدبير الامور وذمهم من يأتي بها على غير تأمل وروية . . ويحتمل أن يكون المراد ان الوجدان يحكم بتضاد آثار الامور المتضادة ، وربما أمكن اقامة البرهان عليه أيضا ، فاذا أتى الاهمال بالصواب يجب أن يأتي ضده وهو التدبير بالخطأ ، وهذا أفظع وأشنع .
« من تعليقات البحار »

«٤» الفهم : ـ بفتح فكسر ـ السريع الفهم :

ساعة ويوما بعد يوم .

واعتبر ذلك بان من سبي من بلد وهو عاقل ، يكون كالواله الحيران فلا يسرع إلى تعلّم الكلام وقبول الادب ، كما يسرع الذي سبي صغيرا غير عاقل ثم لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة (١) اذا رأى نفسه محمولا مرضعا معصبا بالخرق مسجى (٢) في المهد لانه لا يستغني عن هذا كله. لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل فصار يخرج الى الدنيا غبياً (٣) غافلا عما فيه أهله ، فيلق الاشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة . ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلا قليلا ، وشيئاً بعد شيء ، وحالا بعد حال : حتى يألف الأشياء ، ويتمرن ويستمر عليها ، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف ، والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته ، وإلى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية ، وفي هذا أيضاً وجوه اخر . فانه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الاولاد ، وما قدر أن يكون للوالدين فى الاشتغال بالولد من المصلحة وما يوجب التربية للآباء على الابناء من المكافاة بالبر ، والعطف عليهم ، عند حاجتهم الى ذلك منهم (٤) ثم كان الاولاد

«١» الغضاضة : هي الذلة والمنقصة ـ جمعها غضائض .

«٢» التسجية : هي التغطية بثوب يمد على الجسم .

«٣» على فعيل ـ وهو القليل الفطنة .

«٤» أي بان يبر الابناء بآبائهم والعطف عليهم عند حاجة الآباء إلى ذلك في كبرهم وضعفهم ، وجزاء لما عانوا من الشدائد فى سبيل تربية الابناء

لا يألفون آباءهم ولا يألف الآباء أبناءهم ، لأن الاولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم ، فيتفرقون عنهم حين يولدون ، فلا يعرف الرجل أباه وامه ، ولا يمتنع من نكاح امه واخته ، وذوات المحارم منه ، اذا كان لا يعرفهن . وأقل ما في ذلك من القباحة ، بل هو أشنع وأعظم وأفظع وأقبح وأبشع ، لو خرج المولود من بطن امه وهو يعقل ، ان يرى (١) منها ما لا يحل له ، ولا يحسن به أن يراه ، أفلا ترى كيف أقيم كل شيء من الخلقة على غاية الصواب ؟ وخلا من الخطأ دقيقه وجليله (٢)

منفعة الاطفال فى البكاء

اعرف يا مفضل ما للاطفال فى البكاء من المنفعة ، واعلم ان فى أدمغة الاطفال رطوبة ، ان بقيت فيها أحدثت عليهم احداثا جليلة وعللا عظيمة ، من ذهاب البصر وغيره ، والبكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم والسلامة فى أبصارهم . أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان (٣) ليسكتانه ويتوخيان (٤) فى الامور مرضاته لئلا يبكي ، وهما لا يعلمان ان البكاء

«١» خبر لقوله : أقل ما فى ذلك .

«٢» ان بعض هذا البيان البديع من الامام عن تدرج الانسان في نموه ، ونموه فى أوقاته ، كاف في حكم العقل ، بان له صانعا صنعه عن علم وحكمة وتقدير وتدبير . «عن كتاب الامام الصادق للشيخ محمد حسين المظفر ج ١ ص ١٧١ .

«٣» الدئوب : الجد والتعب . «٤» التوخي . التحري والقصد

أصلح له وأجمل عاقبة . فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالاهمال ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء انه لا منفعة فيه ، من أجل انهم لا يعرفونه ولا يعلمون السبب فيه ، فان كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون (١) وكثيراً ما يقصر عنده علم المخلوقين محيط به علم الخالق جل قدسه وعلت كلمته .

فاما ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق ، ففي ذلك خروج الرطوبة التي لو بقيت في أبدانهم لأحدثت عليهم الامور العظيمة ، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة ، فاخرجته إلى حد البله والجنون والتخليط ، إلى غير ذلك من الامراض المتلفة كالفالج (٢) واللقوة (٣) وما اشبههما ، فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم فى صغرهم ، لما لهم فى ذلك من الصحة في كبرهم ، فتفضل على خلقه بما جهلوه ، ونظر لهم بما لم يعرفوه ، ولو عرفوا نعمه عليهم لشغلهم ذلك من التمادي فى معصيته ، فسبحانه ما اجل نعمته وأسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه ، تعالى عما يقول المبطلون (٤) علواً كبيرا .

«١» اي ان ذلك مما لا يقصر عن ادراكه ذو العلم والفهم .

«٢» الفالج : داء يحدث فى أحد شقي البدن ، فيبطل احساسه وحركته .

«٣» اللقوة : ـ بفتح فسكون ـ داء يصيب الوجه ، يعوج منه الشدق إلى أحد جانبي العنق ، جمعه لقاء ، والقاء .

«٤» يقال : أبطل أي جاء بالباطل .

آلات الجماع وهيئتها

انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والانثى جميعاً على ما يشاكل ذلك عليه ، فجعل للذكر آلة ناشرة تمتد حتى تصل النطفة (١) إلى الرحم ، اذ كان محتاجا إلى أن يقذف ماءه في غيره ، وخلق للانثى وعاءاً قعراً (٢) ليشتمل على الماءين جميعاً . ويحتمل الولد ويتسع له ويصونه حتى يستحكم ، أليس ذلك من تدبير حكيم لطيف سبحانه وتعالى عما يشركون ! ؟ .

أعضاء البدن وفوائد كل منها

فكر يا مفضل في أعضاء البدن أجمع ، وتدبير كل منها للارب فاليدان للعلاج ، والرجلان للسعي ، والعينان للاهتداء ، والفم للاغتذاء والمعدة للهضم ، والكبد للتخليص ، والمنافذ (٣) لتنفيذ الفضول والأوعية لحملها ، والفرج لاقامة النسل ، وكذلك جميع الأعضاء ، اذا ما تأملتها واعملت فكرك فيها ونظرك ، وجدت كل شيء منها قد قدر لشيء على صواب وحكمة .

زعم الطبيعيين وجوابه

قال المفضل فقلت : يا مولاي ان قوما يزعمون ان هذا من فعل

---

(١) النطفة : ماء الرجل أو المرأة ، والجمع نطاف ونطف .

(٢) القعر من كل شيء : عمقه ونهاية أسفله .

(٣) المنافذ هنا بمعنى النوافذ من الانسان ، أي كل سم أو خرق فيه كالفم والأنف ، والظاهر ان المراد بها هنا محل خروج البول والغائط .

الطبيعة ، فقال عليه السلام : سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال ، أم ليست كذلك ؟؟ فان أوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنعهم من اثبات الخالق ، فان هذه صنعته !! (١) ، وان زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد ، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة ، علم ان هذا الفعل للخالق الحكيم ، فان الذي سموه طبيعة هو سنته في خلقه ، الجارية على ما اجراها عليه (٢) .

عملية الهضم وتكون الدم وجريانه فى الشرايين والاوردة

فكر يا مفضل في وصول الغذاء إلى البدن ، وما فيه من التدبير ، فان الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه ، وتبعث بصفوه إلى الكبد ، فى عروق دقاق واشجة (٣) بينهما ، قد جعلت كالمصفى للغذاء ، لكيلا يصل إلى

(١) لعل المراد انهم اذا قالوا بذلك فقد أثبتوا الصانع ، فلم يسمونه بالطبيعة ، وهي ليست بذات علم ولا ارادة ولا قدرة ؟ .

(٢) اي ظاهر بطلان هذا الزعم ، والذي صار سبباً لذهولهم إلى أن الله تعالى أجرى عادته بأن يخلق الأشياء باسبابها ، فذهبوا إلى استقلال تلك الأسباب في ذلك . وبعبارة أخرى ان سنة الله وعادته قد جرت لحكم كثيرة ، فتكون الأشياء بحسب بادي النظر مستندة إلى غيره تعالى ، ثم يعلم - بعد الاعتبار والتفكر - ان الكل مستند إلى قدرته وتأثيره تعالى ، وانما هذه الاشياء وسائل وشرائط لذلك ومن هنا تحيروا في الصانع تعالى « من تعليقات البحار »

(٣) الواشجة : مؤنث الواشج اسم فاعل بمعنى المشتبك ، يقال : وشجت العروق والاغصان اذا اشتبكت . والمراد بالواشجة هنا الموصلة أو الواصلة .

الكبد منه شيء فينكأها (١) وذلك ان الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ، ثم ان الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً ، وينفذه إلى البدن كله في مجاري مهيئة لذلك ، بمنزلة المجارى التي تهيأ للماء ليطرد في الارض كلها وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول الى مفائض (٢) قد أعدت لذلك فما كان منه من جنس المرة (٣) الصفراء جرى إلى المرارة (٤) وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال ، وما كان من البلة والرطوبة جرى إلى المثانة (٥) .

فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن ، ووضع هذه الأعضاء منه مواضعها ، واعداد هذه الأوعية فيه ، لتحمل تلك الفضول ، لئلا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه ، فتبارك من أحسن التقدير ، وأحكم التدبير ،

---

(١) نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ فندبت .

(٢) المفائض : المجاري ، مأخوذة من فاض الماء ، وفي بعض النسخ بالغين من غاض الماء غيضاً ، أي نضب وذهب في الارض .

(٣) المرة : - بكسر ففتح - خلط من اخلاط البدن وهو الصفراء أو السوداء ، جمعه مرار .

(٤) المرارة : هنة شبه كيس لاصقة بالكبد تكون فيها مادة صفراء هي المرة التي أشار اليها الامام ، جمعها مرائر ومرارات .

(٥) في كلام الامام عليه السلام هنا معان صريحة عن الدورة الدموية التي اكتشفها العالم الانكليزي وليم هارفي « ١٥٧٨ - ١٦٥٧ » بل ان الامام قد فصل القول - كما ترى هنا - عن جريان الدم في الاوردة والشرايين ، وان مركزه هو القلب . فنستطيع إذن أن نقول بان الامام هو المكتشف الاول للدورة الدموية . . .

وله الحمد كما هو أهله ومستحقه .

أول نشوء الأبدان : تصوير الجنين في الرحم

قال المفضل فقلت : صف نشوء الأبدان ونموها حالا بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال قال عليه السلام : أول ذلك تصوير الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد ، ويدبره حتى يخرج سويا مستوفيا جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح والعوامل ، إلى ما في تركيب أعضائه من العظام ، واللحم ، والشحم ، والعصب ، والمخ ، والعروق والغضاريف (١) . فاذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه وهو ثابت على شكل وهيئة لا تتزايد ولا تنقص إلى أن يبلغ أشده ان مد في عمره أو يستوفي مدته قبل ذلك ، هل هذا إلا من لطيف التدبير والحكمة

اختصاص الانسان بالانتصاب والجلوس دون البهائم

انظر يا مفضل ما خص به الانسان في خلقه تشرفاً وتفضلا على البهائم ، فانه خلق ينتصب قائما ويستوي جالساً ، ليستقبل الاشياء بيديه وجوارحه ، ويمكنه العلاج والعمل بهما . فلو كان مكبوبا على وجهه كذوات الاربع ، لما استطاع ان يعمل شيئاً من الاعمال .

تخصص الانسان بالحواس وتشرفها دون غيره

انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس (٢) التي خص بها الانسان

---

(١) الغضاريف : جمع غضروف وهو كل عظم رخص لين .

(٢) هي الاعضاء التي تؤمن مناسباتنا مع المحيط الخارجي ، وهي خمسة أعضاء : اللمس والذوق والشم والبصر والسمع .

في خلقه ، وشرف بهـا على غيره . كيف جعلت العينان في الرأس ، كالمصابيح فوق المنارة؟ ليتمكن من مطالعة الاشياء ، ولم تجعل في الاعضاء التي تحتهن ، كاليدين والرجلين ، فتعترضها الآفات ويصيبها من مباشرة العمل والحركة ، ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها ، ولا في الاعضاء التي وسط البدن ؛ كالبطن ، والظهر ، فيعسر تقلبها ، واطلاعها نحو الاشياء .

الحواس الخمس واعمالها وما في ذلك من الاسرار

فلما لم يكن لها في شيء من هذه الاعضاء موضع ، كان الرأس أسنى المواضع للحواس ، وهو بمنزلة الصومعة لهـا . فجعل الحواس خمسا تلقى خمسا لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات . فخلق البصر ليدرك الالوان فلو كانت الالوان ولم يكن بصر يدركها . لم تكن فيها منفعة . وخلق السمع ليدرك الاصوات ، فلو كانت الاصوات ولم يكن سمع يدركها ، لم يكن فيها ارب . وكذلك سائر الحواس ثم هذا يرجع متكافيا ، فلو كان بصر ولم تكن الالوان ، لما كان للبصر معنى ، ولو كان سمع ولم تكن أصوات ، لم يكن للسمع موضع .

تقدير الحواس بعضها يلقي بعضا

فانظر كيف قدر بعضها يلقي بعضا ، فجعل لكل حاسة محسوسا (١) يعمل فيه ، ولكل محسوس (٢) حاسة تدركه ، ومع هـذا فقد جعلت

(١-٢) لعل الاصل في كلمة محسوس هنا هو « حس » ولا تأتي كلمة محسوس هنا ، لان حس بمعنى شعر وعلم فعل لازم ، ومن البدهي عدم جواز صيغة اسم المفعول من الفعل اللازم ، إلا اذا عدي بحرف ـ

أشياء متوسطة بين الحواس والمحسوسات ، لا تتم الحواس إلا بها ، كمثل الضياء والهواء ، فانه لولم يكن ضياء يظهر اللون للبصر ، لم يكن البصر يدرك اللون ، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع ، لم يكن السمع يدرك الصوت . فهل يخفى على من صح نظره وأعمل فكره ، ان مثل هذا الذي وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها يلقي بعضا ، وتهيئة أشياء اخر بها تتم الحواس ، لا يكون إلا بعمل وتقدير من لطيف خبير ؟ .

فيمن عدم البصر والسمع والعقل وما فى ذلك من الموعظة

فكر يا مفضل فيمن عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل في أموره ، فانه لايعرف موضع قدميه ، ولا يبصر ما بين يديه ، فلايفرق بين الألوان ، وبين المنظر الحسن والقبيح ، ولا يرى حفرة ان هجم عليها ولا عدواً ان أهوى اليه بسيف ، ولا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئاً من هذه الصناعات مثل الكتابة والتجارة والصياغة ، حتى انه لو لا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى .

وكذلك من عدم السمع ، يختل فى أمور كثيرة ، فانه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ، ويعدم لذة الأصوات واللحون الشجية والمطربة ، وتعظم المؤنة على الناس فى محاورته ، حتى يتبرموا به ، ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم ، حتى يكون كالغائب وهو شاهد ، أو كالميت وهو حي . .

ـ الجر اذ جاء مع المصدر أو الظرف ، ويأتي فعل حس متعديا بغير هذا المعنى ، فيقال : حسه اذا قتله واستأصله .

فاما من من عدم العقل ، فانه يلحق بمنزلة البهائم ، بل يجهل كثيراً مما تهتدى اليه البهائم ، أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل ، وسائر الخلال (١) التي بها صلاح الانسان ، والتي لو فقد منها شيئاً لعظم ما يناله في ذلك من الخلل ، يوافي (٢) خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئا منها ، فلم كان كذلك ؟ إلا انه خلق بعلم وتقدير ،

قال المفضل فقلت : فلم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح فيناله من ذلك مثل ما وصفته يا مولاي ؟ قال عليه السلام : ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه كما يؤدب الملوك الناس للتنكيل والموعظة ، فلا ينكر ذلك عليهم ، بل يحمد من رأيهم ، ويتصوب من تدبيرهم ، ثم ان للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت - ان شكروا وأنابوا - ما يستصغرون معه ما ينالهم منها ، حتى انهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا ان يردوا إلى البلايا ، ليزدادوا من الثواب

الاعضاء المخلوقة افراداً وازواجاً وكيفية ذلك

فكر يا مفضل في الاعضاء التي خلقت افراداً وازواجاً ، وما في ذلك من الحكمة والتقدير ، والصواب في التدبير ،

فالرأس مما خلق فرداً ، ولم يكن للانسان صلاح فى أن يكون له أكثر من واحد . ألا ترى انه لو اضيف إلى رأس الانسان رأس آخر

---

(١) الخلال : جمع خلة وهي الخصلة ،

(٢) يوافى خبر الى صارت المتقدمة قبل سطرين .

لكان ثقلا عليه، من غير حاجة اليه، لان الحواس التي يحتاج اليها مجتمعة في رأس واحد. ثم كان الانسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان، فان تكلم من احدهما كان الآخر معطلا لا ارب فيه ولا حاجة اليه، وان تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان احدهما فضلا لا يحتاج اليه، وان تكلم باحدهما بغير الذي تكلم به من الآخر، لم يدر السامع باي ذلك ياخذ، واشباه هذا من الاخلاط..

واليدان مما خلق ازواجا، ولم يكن للانسان خير في ان يكون له يد واحدة، لأن ذلك كان يخل به (١) فيما يحتاج الى معالجته من الاشياء ألا ترى ان النجار والبناء لو شلت احدى يديه لا يستطيع ان يعالج صناعته، وان تكلف ذلك لم يحكمه، ولم يبلغ منه ما يبلغه اذا كانت يداه تتعاونان على العمل..؟

الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الانسان وعمل كل منها

أطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الانسان فالحنجرة كالانبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم. ألا ترى ان من سقطت اسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، واشبه (٢) شيء بذلك المزمار (٣) الاعظم، فالحنجرة تشبه قصبة المزمار، والرئة تشبه

(١) يقال: اخل بالشي اذا قصر فيه.

(٢) يظهر ان الجملة ناقصة وتكملتها: «مخرج الصوت اشبه شيء»

(٣) المزمار: الآلة التي يزمر فيها جمعها مزامير.

الزق (١) الذي ينفخ فيه لتدخل الريح ، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالاصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزامير والشفتان والاسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً كالاصابع التي تختلف في فم المزمار فتصوغ صفيره الحانا غير انه وان كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالالة والتعريف فان المزمار - في الحقيقة - هو المشبه بمخرج الصوت

﴿ ما في الاعضاء من المآرب الاخرى ﴾

قد أنبأتك بما في الاعضاء من الغناء في صنعة الكلام واقامة الحروف ، وفيها مع الذي ذكرت لك مآرب اخرى . فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم إلى الرئة ، فتروح على الفؤاد بالنفس الدائم المتتابع ، الذي لو حبس شيئاً يسيرا لهلك الانسان ، وباللسان تذاق الطعوم ، فيميز بينها ، ويعرف كل واحد منها حلوها من مرها وحامضها من مرّها ومالحها من عذبها وطيبها من خبيثها ، وفيه مع ذلك معونة على اساغة الطعام والشراب والاسنان لمضغ الطعام حتى يلين وتسهل اساغته ، وهي مع ذلك كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم واعتبر ذلك فانك ترى من سقطت أسنانه مسترخي الشفة ومضطربها ، وبالشفتين يترشف (٢) الشراب ، حتى يكون الذي يصل إلى الجوف منه بقصد وقدر ، لا يثج (٣) ثجا ، فيغص به الشارب ، أو ينكأ (٤) في الجوف ، ثم هي (٥) بعد ذلك كالباب

(١) المراد بالزق هنا الجلد الذي يستعمل في المزمار .
(٢) ترشف الشراب اي بالغ في مصه . (٣) ثج يثج ثجا : اساله .
(٤) لعله اراد انه يقع في غير ما حاجة . (٥) هي الماء سال لا يثنيه شيء

المطبق على الفم يفتحها الانسان اذا شاء ويطبقها اذا شاء ، وفيما وصفنا من هذا بيان .

ان كل واحد من هذه الاعضاء يتصرف وينقسم إلى وجوه من المنافع كما تتصرف الاداة الواحدة فى اعمال شتى ، وذلك كالفأس تستعمل فى النجارة والحفر وغيرهما من الاعمال .

﴿ الدماغ وأغشيته والجمجمة وفائدتها ﴾

ولو رأيت الدماغ اذا كشف عنه لرأيته قد لُفَّ بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الاعراض ، وتمسكه فلا يضطرب . ولرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة ، كيما تقيه (١) هدّ الصدمة ، والصكة التي ربما وقعت فى الرأس ثم قد جللت الجمجمة بالشعر ، حتى صارت بمنزلة الفرو للرأس يستره من شدة الحر والبرد ، فمن حصّن الدماغ هذا التحصين ، إلا الذي خلقه وجعله ينبوع الحس ، والمستحق للحيطة والصيانة ، بعلو منزلته من البدن ، وارتفاع درجته ، وخطير مرتبته .

﴿ الجفن وأشفاره ﴾

تأمل يامفضل : الجفن على العين كيف جعل كالغشاء والاشفار (٢) كالاشراج (٣) ، وأولجها (٤) فى هذا الغار ، واظلها بالحجاب ، وما عليه من الشعر .

---

(١) فى نسخة يفته بدلا عن تقيه ، ويفته من الفت وهو الكسر .
(٢) الاشفار جمع شفر وهو أصل منبت الشعر فى الجفن .
(٣) الاشراج : العرى . (٤) أولجها : أدخلها .

﴿ الفؤاد ومدرعته ﴾

يا مفضل من غيّب الفؤاد في جوف الصدر ، وكساه المدرعة (١) التي هي غشاؤه ، وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب ، لئلا يصل اليه ما ينكأه (٢).

﴿ الحلق والمري ﴾

من جعل في الحلق منفذين أحدهما لمخرج الصوت وهو الحلقوم المتصل بالرئة ، والآخر منفذاً للغذاء ، وهو المري (٣) المتصل بالمعدة الموصل الغذاء اليها ، وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل الى الرئة فيقتل

﴿ الرئة وعملها . اشراج منافذ البول والغائط ﴾

من جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تفتر ولا تخل لكيلا تتحير (٤) الحرارة في الفؤاد ، فتؤدي إلى التلف . ؟ من جعل لمنافذ البول والغائط أشراجا (٥) تضبطهما ، لئلا يجريا جرياناً دائماً ، فيفسد على الانسان عيشه

---

(١) كأن المراد بالمدرعة هنا ثوب الجديد فالمدرعة في الاصل جبة مشقوقة المقدم أو كما عند اليهود ثوب من كتان كان يلبس عظيم احبارهم ولكن الذي يريده الامام من حد قولهم درع اذا لبس درع الحديد .

(٢) نكأه : جرحه وآذاه . (٣) المري : هو العرق الذي يمتلىء ويدر باللبن جمعه مرايا ، وقد أبان الامام وظيفة المرى وعمله بتعبير لطيف

(٤) تحيرت الحرارة : ترددت كأنها لا تدري كيف تجري فتجمعت وفي نسخة تتحيز وليس لها معنى مستقيم .

(٥) الاشراج جمع شرج وهو في الاصل انشقاق في القوس ، وقد استعار الامام منها معنى لمنافذ البول والغائط .

فكم عسى ان يحصي المحصي من هذا ، بل الذي لا يحصى منه ولا يعلمه الناس أكثر ؟.

﴿ المعدة عصبانية والكبد ﴾

من جعل المعدة عصبانية شديدة وقدرها لهضم الطعام الغليظ ؟ ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لقبول الصفو (١) اللطيف من الغذاء ، ولتهضم وتعمل ما هو الطف من عمل المعدة إلا الله القادر ؟ أترى الاهمال يأتي بشيء من ذلك ؟ كلا ! بل هو تدبير مدبر حكيم قادر ، عليم بالاشياء قبل خلقه إياها ، لا يعجزه شيء وهو اللطيف الخبير .

﴿ المخ والدم والاظفار والاذن ولحم الاليتين والفخذين ﴾

فكر يا مفضل لم صار المخ الرقيق محصنا في انابيب العظام ؟ هل ذلك إلا ليحفظه ويصونه . ؟ لم صار الدم السائل محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الظروف (٢) إلا لتضبطه فلا يفيض ؟ . لم صارت الاظفار على اطراف الاصابع إلا وقاية لها ومعونة على العمل ؟ لم صار داخل الاذن ملتويا كهيأة اللولب (٣) إلا ليطرد فيه الصوت ، حتى ينتهى الى السمع ، وليكسر حمة الريح ، فلا ينكأ في السمع ؟ لم حمل الانسان على فخذيه واليتيه هذا اللحم ، إلا ليقيه من الارض ، فلا يتألم من الجلوس عليها ، كما يألم

---

(١) الصفو من كل شيء : خالصه وخياره .

(٢) الظروف جمع ظرف وهو كل ما يستقر فيه غيره ويغلب استعماله للقربة والسقاء . (٣) اللولب : آلة من خشب أو حديد ذات محور ذي دوائر ناتئة وهو الذكر او داخلة وهو الانثى جمعه لوالب .

من نحل جسمه وقل لحمه ، اذا لم يكن بينه وبين الارض حائل يقيه صلابتها
(الانسان ذكر وانثى وتناسله وآلات العمل وحاجته وحيلته والزامه بالحجة)

من جعل الانسان ذكراً وانثى إلا من خلقه متناسلا ؟ ومن خلقه متناسلا إلا من خلقه مؤملا ؟ ومن أعطاه آلات العمل إلا من خلقه عاملا؟ ومن خلقه عاملا إلا من جعله محتاجا ؟ ومن جعله محتاجا إلا من ضربه بالحاجة ؟ (١) ومن ضربه بالحاجة إلا من توكل بتقويمه ؟ (٢) ومن خصه بالفهم إلا من أوجب الجزاء ؟ ومن وهب له الحيلة إلا من ملكه الحول(٣) ومن ملكه الحول إلا من ألزمه الحجة ؟ من يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من لم يبلغ مدى شكره .

فكر وتدبر ما وصفته . هل تجد الاهمال يأتي على مثل هذا النظام والترتيب تبارك الله تعالى عما يصفون .

(الفؤاد وثقبه المتصلة بالرئة)

اصف لك الآن يا مفضل الفؤاد . اعلم ان فيه ثقباً موجهة نحو الثقب التي في الرئة تروح عن الفؤاد ، حتى لو اختلفت تلك الثقب وتزايل بعضها عن بعض ، لما وصل الروح الى الفؤاد ، ولهلك الانسان أفيستجيز ذو فكرة وروية ان يزعم ان مثل هذا يكون بالاهمال ، ولا يجد شاهداً

---

(١) أي سبب له اسباب الاحتياج او خلقه بحيث يحتاج .
(٢) أي تكفل برفع حاجته وتقويم اوده .
(٣) الحول مصدر بمعنى القدرة والقوة على التصرف وجودة النظر والحذق .

من نفسه يزعه (١) عن هذا القول ؟ لو رأيت فرداً من مصراعين فيه كلوب (٢) اكنت تتوهم انه جعل كذلك بلا معنى ؟ بل كنت تعلم ضرورة انه مصنوع يلقى فرداً آخر ، فيبرزه ليكون في اجتماعهما ضرب من المصلحة . وهكذا تجد الذكر من الحيوان ، كانه فرد من زوج مهيأ من فرد انثى ، فيلتقيان لما فيه من دوام النسل وبقائه ، فتباً (٣) وخيبة وتعساً لمنتحلي الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى انكروا التدبير والعمد فيها ؟.

(فرج الرجل والحكمة فيه)

لو كان فرج الرجل مسترخياً ، كيف كان يصل الى قعر الرحم ، حتى يفرغ النطفة فيه ؟ ولو كان منعضاً (٤) ابدا كيف كان الرجل يتقلب في الفراش ، او يمشي بين الناس وشيء شاخص أمامه ، ثم يكون في ذلك مع قبح المنظر . تحريك الشهوة في كل وقت من الرجال والنساء جميعاً ، فقدر الله جل اسمه أن يكون اكثر ذلك لا يبدو للبصر في كل وقت ، ولا يكون على الرجال منه مؤنة ، بل جعل فيه قوة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلك ، لما قدر أن يكون فيه من دوام النسل وبقائه .

---

(١) يزعه : يكفه ويمنعه . (٢) الكلوب - بفتح الاول وتشديد الثاني - المهماز أو حديدة معطوفة الرأس يجر بها الجمر او خشبة في رأسها عقافة منها او من حديد والجمع كلاليب . (٣) تباً لفلان تنصبه على المصدر باضمار فعل اى الزمه الله هلاكا وخسرانا .

(٤) المنعض كأنه مأخوذ من العض وهو القرن يريد انه صلب شديد

﴿ منفذ الغائط ووصفه ﴾

اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على الانسان في مطعمه ومشربه وتسهيل خروج الاذى . أليس من حسن التقدير في بناء الدار أن يكون الخلاء في أستر موضع منها ، فكذا جعل الله سبحانه المنفذ المهيأ للخلاء من الانسان في أستر موضع منه ، فلم يجعله بارزا من خلفه ، ولا ناشزاً من بين يديه ، بل هو مغيب في موضع غامض من البدن ، مستور محجوب ، يلتقي عليه الفخذان وتحجبه الأليتان بما عليهما من اللحم فتواريانه ، فاذا احتاج الانسان الى الخلاء ، وجلس تلك الجلسة الفى (١) ذلك المنفذ منه منصباً ، مهيأ لانحدار الثفل (٢) . فتبارك من تظاهرت آلاؤه ولاتحصى نعماؤه

﴿ الطواحن من اسنان الانسان ﴾

فكر يامفضل في هذه الطواحن (٣) التي جعلت للانسان ، فبعضها حداد (٤) لقطع الطعام وقرضه ، وبعضها عراض (٥) لمضغه ورضه ، فلم ينقص واحد من الصفتين ، اذ كان محتاجا اليهما جميعاً .

﴿ الشعر والاظفار وفائدة قصهما ﴾

تأمل واعتبر بحسن التدبير في خلق الشعر والاظفار ، فانهما لما

---

(١) الفى : وجد (٢) الثفل - بالضم - ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة . (٣) الطواحن جمع طاحن وهو الضرس .
(٤) حداد أي قاطعة . (٥) عراض جمع عريض ضد طويل ، وربما أريد به المعارضة وهي السن التي في عرض الفم أو ما يبدو من الفم عند الضحك .

كانا مما يطول ويكثر ، حتى يحتاج إلى تخفيفه اولا فأولا ، جعلا عديما الحس ، لئلا يؤلم الانسان الاخذ منهما ، ولو كان قص الشعر وتقليم الاظفار مما يوجد له ألم ، وقع من ذلك بين مكروهين ، إما أن يدع كل واحد منهما حتى يطول فيثقل عليه ، واما أن يخففه بوجع وألم يتألم منه .

قال المفضل فقلت : فلم لم يجعل ذلك خلقة لا تزيد فيحتاج الانسان إلى النقصان منه ، فقال عليه السلام : ان الله تبارك اسمه فى ذلك على العبد نعماً لا يعرفها ، فيحمده عليها . . اعلم ان آلام البدن وادواءه (١) تخرج بخروج الشعر فى مسامه (٢) وبخروج الاظفار من اناملها ، ولذلك أمر الانسان بالنورة ، وحلق الرأس ، وقص الاظفار ، في كل اسبوع ليسرع الشعر والاظفار في النبات ، فتخرج الآلام والادواء بخروجها (٣) . . . واذا طالا تحيرا ، وقل خروجها ، فاحتبست الآلام والادواء فى البدن فاحدثت عللا وأوجاعا ومنع – مع ذلك – الشعر من المواضع التي تضر بالانسان ، وتحدث عليه الفساد والضر لو نبت الشعر في العين ، ألم يكن سيعمى البصر ؟ ولو نبت في الفم ، ألم يكن سينغص على الانسان طعامه وشرابه ؟ ولو نبت في باطن الكف ، الم يكن سيعوقه عن صحة اللمس

---

(١) الادواء جمع داء وهو المرض والعلة . (٢) المسام من الجلد ثقبه ومنافذه كمنابت الشعر ، ومنهم من يجعلها جمع سم اي الثقب مثل محاسن وحسن .

(٣) يؤيد هذا الرأي علم الطب الحديث ، وان كانت نظرية التطور تقول بان الشعر والاظافر من الزوائد الحيوانية الاولى التي لم يعد لهـــا نفع ولا فائدة .

وبعض الاعمال ؟ ولو نبت في فرج المرأة وعلى ذكر الرجل ، ألم يكن سيفسد عليهما لذة الجماع ؟ . . فانظر كيف تنكب (١) الشعر عن هذه المواضع ، لما في ذلك من المصلحة ، ثم ليس هذا في الانسان فقط ، بل تجده في البهائم والسباع وسائر المتناسلات ، فانك ترى اجسامها مجللة بالشعر وترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه . . فتأمل الخلقة كيف تتحرز (٢) وجوه الخطأ والمضرة ، وتأتي بالصواب والمنفعة .

﴿ شعر الركب والابطين ﴾

ان المنانية (٣) واشباههم ، حين اجهدوا في عيب الخلقة والعمد (٤) عابو الشعر النابت على الركب والأبطين ، ولم يعلموا ان ذلك من رطوبة تنصب إلى هذه المواضع ، فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع المياه أفلا ترى الى هذه المواضع استر واهيأ لقبول تلك الفضلة من غيرها ؟ . . ثم ان هذه تعد مما يحمل الانسان من مؤونة هذا البدن وتكاليفه ، لما له في ذلك من المصلحة ، فان اهتمامه بتنظيف بدنه . واخذ ما يعلوه من الشعر ، مما يكسر به شرّته (٥) ويكفّ عاديته (٦) ويشغله عن بعض ما يخرجه اليه

---

(١) تنكب عنه : عدل عنه وتجنبه .

(٢) احترز منه وتحرز أي تحفظه وتوقاه كأنه جعل نفسه في حرز منه

(٣) المنانية او المانوية سبق الكلام عنها في اوائل الكتاب .

(٤) يقال فعله عمداً وعن عمد أي قصداً لا عن طريق الصدفة .

(٥) الشرة ـ بكسر فتشديد ـ الحدة والنشاط او الشر .

(٦) العادية : الحدة والغضب أو الشغل أو الظلم والشر .

الفراغ من الأشر (١) والبطالة .

﴿ الريق وما فيه من المنفعة ﴾

تأمل الريق وما فيه من المنفعة ، فانه جعل يجري جرياناً دائماً إلى الفم ، ليبل الحلق واللهوات (٢) فلا يجف ، فان هذه المواضع لو جعلت كذلك ، كان فيه هلاك الانسان ثم كان لا يستطيع أن يسيغ (٣) طعاماً ، اذا لم يكن في الفم بلة تنفذه . تشهد بذلك المشاهدة ، واعلم ان الرطوبة مطية الغذاء . وقد تجري من هذه البلة إلى مواضع اخر من المرّة (٤) فيكون في ذلك صلاح تام للانسان ، ولو يبست المرة لهلك الانسان .

﴿ محاذير كون بطن الانسان كهيئة القباء ﴾

ولقد قال قوم من جهلة المتكلمين وضعفة المتفلسفين بقلة التمييز وقصور العلم : لو كان بطن الانسان كهيئة القباء (٥) يفتحه الطبيب اذا شاء فيعاين ما فيه ، ويدخل يده فيعالج ما أراد علاجه ألم يكن أصلح من أن يكون مُصمتاً (٦) محجوباً عن البصر واليد ، لا يعرف ما فيه الا بدلالات غامضة ، كمثل النظر إلى البول ، وجس العرق ، وما أشبه ذلك مما يكثر

(١) الأشر – بفتحتين – البطر وشدة الفرح والجمع أشرون واشارى

(٢) اللهوات جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في اقصى سقف الفم . (٣) اساغ الطعام يسيغه سيغا : سهل مطعمه .

(٤) المرة – بالكسر – خلط من اخلاط البدن وهو الصفراء أو السوداء والجمع مرار .

(٥) القباء – بالفتح – ثوب يلبس فوق الثياب جمعه أقبية .

(٦) مصمت اسم مفعول الذي لا جوف له .

فيه الغلط والشبهة ، حتى ربما كان ذلك سبباً للموت . فلو علم هؤلاء الجهلة ان هذا لو كان هكذا ، كان اول ما فيه أن كان يسقط عن الانسان الوجل من الأمراض والموت وكان يستشعر البقاء ويغتر بالسلامة فيخرجه ذلك الى العتو (١) والأشر (٢) . ثم كانت الرطوبات التي في البطن ترشح وتتحلب (٣) فيفسد على الانسان مقعده ومرقده وثياب بذلته وزينته ؛ بل كان يفسد عليه عيشه ، ثم ان المعدة والكبد والفؤاد انما تفعل أفعالها بالحرارة الغريزية التي جعلها الله محتبسة في الجوف ، فلو كان في البطن فرج ينفتح حتى يصل البصر الى رؤيته ، واليد الى علاجه ، لوصل برد الهواء الى الجوف ، فمازج الحرارة الغريزية ، وبطل عمل الاحشاء ، فكان في ذلك هلاك الانسان ، أفلا ترى ان كلما تذهب اليه الأوهام ـ سوى ما جاءت به الخلقة ـ خطأ وخطل (٤) .

﴿ أفعال الانسان في الطعم والنوم والجماع وشرح ذلك ﴾

فكر يامفضل في الافعال التي جعلت في الانسان من الطعم والنوم والجماع وما دبر فيها . . فانه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرك يقتضيه ويستحث به ، فالجوع يقتضي الطعم الذي فيه راحة البدن وقوامه

---

(١) العتو : الاستكبار وتجاوز الحد . (٢) الأشر ـ بفتحتين ـ من أشر أي بطر ومرح فهو أشر وأشران وجمعه اشرون وأشارى .

(٣) ترشح وتحلب بمعنى واحد وهو السيلان .

(٤) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب .

والكرى (١) يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن واجمام (٢) قواه ، والشبق (٣) يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه .. ولو كان الانسان انما يصير الى أكل الطعام ، لمعرفته بحاجة بدنه اليه ، ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك ، كان خليقاً ان يتوانى (٤) عنه احياناً بالثقل والكسل ، حتى ينحل بدنه فيهلك ، كما يحتاج الواحد الى الدواء لشيء مما يصلح به بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك الى المرض والموت ، وكذلك لو كان انما يصير الى النوم بالفكر في حاجته الى راحة البدن واجمام قواه كان عسى ان يتثاقل عن ذلك ، فيدفعه حتى ينهك بدنه . ولو كان انما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد ان يفتر عنه ، حتى يقل النسل او ينقطع فان من الناس من لا يرغب في الولد ، ولا يحفل (٥) به .

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الانسان وصلاحه ، محركاً من نفس الطبع يحركه لذلك ، ويحدوه عليه .

واعلم ان في الانسان قوى اربعاً قوة جاذبة تقبل الغذاء وتورده على المعدة . وقوة ماسكة تحبس الطعام ، حتى تفعل فيه الطبيعة فعلها ، وقوة هاضمة ، وهي التي تطبخه ، وتستخرج صفوه ، وتبثه في البدن ، وقوة دافعة تدفعه وتحدر الثفل (٦) الفاضل ، بعد اخذ الهاضمة حاجتها . ففكر في

---

(١) الكرى : النعاس . (٢) الاجمام من الجمام وهو الراحة يقال : جم الفرس اذا ذهب اعياؤه . (٣) الشبق بفتحتين شدة الشهوة (٤) يتوانى : يقصر . (٥) لا يحفل : لا يبالي .
(٦) الثفل هو ما يستقر في اسفل الشيء من كدرة .

تقدير هذه القوى الاربع التي في البدن وافعالها وتقديرها للحاجة اليها والارب فيها ، وما في ذلك من التدبير والحكمة ، فلولا الجاذبة كيف كان يتحرك الانسان لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ؟ ولولا الماسكة كيف كان يلبث الطعام فى الجوف حتى تهضمه المعدة ؟ ولو لا الهاضمة كيف كان ينطبخ (١) حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو البدن ويسد خلله (٢) ولو لا الدافعة كيف كان الثفل الذي تخلفه الهاضمة يندفع ويخرج أولاً فأولاً ؟ أفلا ترى كيف وُكل الله سبحانه - بلطف صنعه وحسن تقديره - هذه القوى بالبدن ، والقيام بما فيه صلاحه . . وسأمثل لك في ذلك مثالا : ان البدن بمنزلة دار الملك ، له فيها حشم (٣) وصبية وقوام (٤) موكاون بالدار . فواحد لقضاء حوائج الحشم وايرادها (٥) عليهم ، وآخر لقبض ما يرد وخزنه ، الى أن يعالج ويهيأ . وآخر لعلاج ذلك وتهيئته وتفريقه ، وآخر لتنظيف ما فى الدار من الاقذار واخراجه منها ، فالملك فى هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين ، والدار هي البدن ، والحشم هم(٦) الاعضاء ، والقوام هم (٧) هذه القوى الأربع . ولعلك ترى ذكرنا هذه

---

(١) انطبخ مطاوع طبخ تقول طبخ اللحم اي انضجه .

(٢) الخلل جمع خلة - بالفتح - وهي الثقبة (٣) الحشم : الخدم والعيال أو من يغضبون له او يغضب لهم من اهل وعبيد وجيرة .

(٤) لعل القوام جمع قيم إذ القيم على الامر هو المتولى عليه .

(٥) أورده ايراداً اى احضره المورد ثم استعمل لمطلق الاحضار .

(٦ - ٧) في بعض النسخ هي .

القوى الاربع وافعالها ـ بعد الذي وصفت ـ فضلا وتزداداً (١) وليس ما ذكرته من هذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الاطباء، ولا قولنا فيه كقولهم ، لانهم ذكروها على ما يحتاج اليه فى صناعة الطب وتصحيح الابدان ، وذكرناها على ما يحتاج فى صلاح الدين وشفاء النفوس من الغي (٢) كالذي أوضحته بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها

﴿ قوى النفس وموقعها من الانسان ﴾

تأمل يا مفضل هذه القوى التي فى النفس ، وموقعها من الانسان ، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك ، أفرأيت لو نقص الانسان من هذه الخلال (٣) الحفظ وحده ، كيف كانت تكون حاله ، وكم من خلل كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وتجاربه ، اذا لم يحفظ ما له وما عليه وما اخذوه وما اعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن اليه ممن أساء به ، وما نفعه مما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يحصى ، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره ولا يعتقد ديناً ، ولا ينتفع بتجربة ، ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً ان ينسلخ من الانسانية .

(١) لعل الاصل في الكلمة مزيداً من الزيادة أو تزيداً من قولك تزيد الرجل فى حديثه اي زخرفه وزاد فيه على الحقيقة ، وتزيد في الشيء أي تكلف الزيادة فيه .

(٢) الغي : الضلال والهلاك والخيبة .

(٣) الخلال جمع خلة ـ بالفتح ـ وهي الخصلة والصفة .

﴿ النعمة على الانسان في الحفظ والنسيان ﴾

فانظر الى النعمة على الانسان في هذه الخلال . وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع ، واعظم من النعمة على الانسان ، في الحفظ النعمة فى النسيان ، فانه لولا النسيان لما سلا (١) احد عن مصيبة ، ولا أنقضت له حسرة ، ولا مات له حقد ، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ، ولا رجاء غفلة من سلطان ، ولا فترة من حاسد . أفلا ترى كيف جعل في الانسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادان ، وجعل له في كل منهما ضرباً من المصلحة ؟ وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين في هذه الأشياء المتضادة المتباينة ، وقد تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة (٢) .

﴿ اختصاص الانسان بالحياء دون بقية الحيوانات ﴾

انظر يا مفضل الى ما خص به الانسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره العظيم غناؤه ، أعني : الحياء . فلولاه لم يُقرض (٣) ولم يوف بالعداة ولم تقض الحوائج ، ولم يتحر الجميل ، ولم يتنكب (٤)

---

(١) سلا الشيء وسلا عنه : نسيه وهجره وطابت نفسه عنه وذهل عن ذكره . (٢) يقول علم النفس الحديث ان النسيان عمل من أعمال الذهن كالتذكر تماما ، وليس فى مقدورنا ان نتذكر شيئا الا اذا نسينا اشياء ، حتى ليمكن القول بان الذاكرة هي أداة النسيان ، ونحن نفكر بفضل ما نسينا ، كما نفكر بفضل ما تذكرنا .

(٣) قرى الضيف : اضافه (٤) يتنكب : يتجنب .

القبيح في شيء من الاشياء ، حتى ان كثيراً من الامور المفترضة ايضاً انما يفعل للحياء فان من الناس من لو لا الحياء لم يرع حق والديه ولم يصل ذا رحم ، ولم يؤد امانة ، ولم يعف عن فاحشة . . . أفلا ترى كيف وفى الانسان جميع الخلال التي فيها صلاحه وتمام أمره .

﴿ اختصاص الانسان بالمنطق والكتابة ﴾

تأمل يا مفضل ما انعم الله - تقدست اسماؤه - به على الانسان ، من هذا المنطق الذي يعبر به عما في ضميره ، وما يخطر بقلبه ، وينتجه فكره وبه يفهم عن غيره ما في نفسه ، ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملة ، التي لا تخبر عن نفسها بشيء ، ولا تفهم عن مخبر شيئاً ، وكذلك الكتابة التي بها تقيد اخبار الماضين للباقين ، واخبار الباقين للآتين ، وبها تخلد الكتب في العلوم والآداب وغيرها ، وبها يحفظ الانسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحساب ولولاه لانقطع اخبار بعض الأزمنة عن بعض ، واخبار الغائبين عن اوطانهم ، ودرست العلوم وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في امورهم ومعاملاتهم ، وما يحتاجون الى النظر فيه من امر دينهم ، وما روي لهم ، مما لا يسعهم جهله ، ولعلك تظن انها مما يخلص اليه بالحيلة والفطنة ، وليست مما اعطيه الانسان من خلقه وطباعه .

وكذلك الكلام ، انما هو شيء يصطلح عليه الناس فيجري بينهم ولهذا صار يختلف في الامم المختلفة ، وكذلك الكتابة العربي والسرياني والعبراني والرومي ، وغيرها من سائر الكتابة التي هي متفرقة في الامم

انما اصطلحوا عليها ، كما اصطلحوا على الكلام ، فيقال لمن ادعى ذلك : ان الانسان وان كان له في الأمرين جميعاً فعل او حيلة ، فان الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة ، عطية وهبة من الله عز وجل له في خلقه ، فانه لولم يكن له لسان مهيأ للكلام ، وذهن يهتدي به للامور ، لم يكن ليتكلم ابدا ولو لم تكن له كف مهيئة واصابع للكتابة ، لم يكن ليكتب ابداً .

واعتبر ذلك من البهائم التي لا كلام لها ولا كتابة ، فأصل ذلك فطرة الباري جل وعز ، وما تفضل به على خلقــــه ، فمن شكر أثيب ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين . (١)

﴿ اعطاء الانسان ما يصلح دينه ودنياه ومنعه مما سوى ذلك ﴾

فكر يا مفضل فيما اعطى الانسان علمه وما منع ، فانه اعطى جميع علم ما فيه صلاح دينه ودنياه فمما فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق ، ومعرفة الواجب عليه ، من العدل على الناس كافة . وبر الوالدين ، وأداء الأمانة ، ومواساة أهل الخلة ، واشباه ذلك ، مما قد توجد معرفته ، والاقرار والاعتراف به في الطبع والفطرة ، من كل امة موافقة أو مخالفة ، وكذلك أعطى علم ما فيه صلاح دنياه ، كالزراعة والغراس ، واستخراج الارضين ، واقتناء الأغنام والأنعام ، واستنباط المياه ، ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام ، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر ، وركوب السفن ، والغوص فى

---

(١) كلام الاملم في بحث اللغات وشأنها هاهنا يشعر بان الانسان هو الذي وضع اللغات ، بما خطره الله من قابلية المنطق وتعلم الكلام .

البحر ، وضروب الحيل فى صيد الوحش والطير والحيتان ، والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب ، وغير ذلك مما يطول شرحة ويكثر تعداده ، مما فيه صلاح أمره في هذه الدار . فاعطى علم ما يصلح به دينه ودنياه ، ومنع ما سوى ذلك ، مما ليس في شأنه ولا طاقته ان يعلم . كعلم الغيب وما هو كائن . وبعض ما قد كان أيضاً ، كعلم ما فوق السماء وما تحت الأرض . وما في لجج البحار واقطار العالم . وما في قلوب الناس وما فى الأرحام واشباه هذا مما حجب على الناس علمه .

وقد ادعت طائفة من الناس هذه الأمور ، فابطل دعواهم ما يبين من خطئهم ، فيما يقضون عليه ويحكمون به فيما ادعوا عليه .

فانظر كيف اعطى الانسان علم جميع ما يحتاج اليه لدينه ودنياه ، وحجب عنه ماسوى ذلك ، ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين فيهما صلاحه

﴿ ما ستر عن الانسان علمه من مدة حياته ﴾

تأمل الآن يا مفضل ما ستر عن الانسان علمه من مدة حياته ، فانه لو عرف مقدار عمره - وكان قصير العمر - لم يتهنأ بالعيش ، مع ترقب الموت وتوقعه ، لوقت قد عرفه ، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله ، أو قارب الفناء ، فقد استشعر الفقر ، والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على ان الذي يدخل على الانسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال ، لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه ، فيسكن إلى ذلك ، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس وان كان طويل العمر ، ثم عرف ذلك ، وثق بالبقاء ، وانهمك فى اللذات والمعاصي ، وعمل على انه يبلغ من

ذلك شهوته ، ثم يتوب فى آخر عمره . وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله ، ألا ترى لو ان عبداً لك عمل على انه يسخطك سنة ويرضيك يوماً أوشهراً ، لم تقبل ذلك منه ، ولم يحل عندك محل العبدالصالح دون ان يضمر طاعتك و نصحك في كل الأمور ؟ وفى كل الأوقات ، على تصرف الحالات (فان قلت) أوليس قد يقيم الانسان على المعصية حيناًثم يتوب فتقبل توبته ؟ (قلنا) : ان ذلك شيء يكون من الانسان لغلبة الشهوات له ، وتركه مخالفتها من غير ان يقدرّها في نفسه ، ويبني عليه أمره ، فيصفح الله عنه ، ويتفضل عليه بالمغفرة . فاما من قدر أمره على ان يعصى ما بدا له ، ثم يتوب آخر ذلك ، فانما يحاول خديعة من لا يخادع ، بان يتسلف (١) التلذذ فى العاجل ، ويعد ويمنى نفسه التوبة فى الآجل ، ولأنه لا يفي بما يعد من ذلك ، فان النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة (٢) التوبة ، ولا سيما عند الكبر وضعف البدن ، امر صعب ، ولا يؤمن على الانسان ، مع مدافعته بالتوبة ان يرهقه الموت ، فيخرج من الدنيا غير تائب ، كما قد يكون على الواحد دين الى اجل ، وقد يقدر على قضائه ، فلا يزال يدافع بذلك حتى يحل الأجل ، وقد نفذ المال ، فيبقى الدين قائماً عليه . فكان خير الأشياء للانسان ان يسترعنه مبلغ عمره ، فيكون

---

(١) التسلف : الاقتراض كأنه يجري معاملة مع ربه ، بان يتصرف في اللذات عاجلا ويعد ربه في عوضها التوبة ليؤدي اليه آجلا . . وفى بعض النسخ يستسلف وهو طلب وبيع الشيء سلفاً .

(٢) المعاناة : مقاساة العناء والمشقة .

طول عمره يترقب الموت ، فيترك المعاصي ، ويؤثر العمل الصالح (قان قلت) وها هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته ، وصار يترقب الموت في كل ساعة يقارف (١) الفواحش وينتهك المحارم (٢) (قلنا) : ان وجه التدبير في هذا الباب ، هو الذي جرى عليه الأمر فيه فان كان الانسان مع ذلك لا يرعوى (٣) ولا ينصرف عن المساوي ، فانما ذلك من مرحه ومن قساوة قلبه ، لا من خطأ في التدبير . كما ان الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به ، فان كان المريض مخالفاً لقول الطبيب ، لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه ، لم ينتفع بصفته ، ولم تكن الاساءة في ذلك للطبيب بل المريض ، حيث لم يقبل منه . ولئن كان الانسان مع ترقبه للموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي ، فانه لو وثق بطول البقاء كان احرى بان يخرج الى الكبائر الفظيعة . . فترقب الموت على كل حال خير له من الثقة بالبقاء ثم ان ترقب الموت وان كان صنف من الناس يلهون عنه ، ولا يتعظون به فقد يتعظ به صنف آخر منهم ، وينزعون عن المعاصي ، ويؤثرون العمل الصالح ، ويجودون بالأموال والعقائل (٤) النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين . فلم يكن من العدل ان يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة لتضييع

---

(١) في الأصل المطبوع يفارق ولا يستقيم المعنى بها بل يكون عكسيا . ولما رجعنا إلى البحار وجدناها يقارف .

(٢) المحارم جمع محرم وهو الحرام .

(٣) الارعواء : الكف عن الشيء ، او الندم على الشيء والانصراف عنه وتركه . (٤) العقائل جمع عقيلة والعقيلة من الابل هي الكريمة ، والعقيلة من كل شيء هي أكرمه .

اولئك حظهم منها .

﴿ الأحلام وامتزاج صادقها بكاذبها وسر ذلك ﴾

فكر يا مفضل فى الأحلام كيف دبر الأمر فيها فمزج صادقها بكاذبها ، فانها لو كانت كلها تصدق لكان الناس كلهم انبياء ، ولو كانت كلها تكذب ، لم يكن فيها منفعه ، بل كانت فضلاً لا معنى له ، فصارت تصدق أحياناً ، فينتفع بها الناس فى مصلحه يهتدي لها ، أو مضرة يتحذر منها ، وتكذب كثيرا لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد .

﴿ الأشياء المخلوقة لمآرب الانسان وايضاح ذلك ﴾

فكر يا مفضل فى هذه الأشياء التي تراها موجودة معدة فى العالم من مآربهم ، فالتراب للبناء ، والحديد للصناعات ، والخشب للسفن وغيرها والحجارة للأرحاء (١) وغيرها ، والنحاس للأواني ، والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة ، والحبوب للغذاء ، والثمار للتفكه ، واللحم للمأكل ، والطيب للتلذذ ، والأدوية للتصحح (٢) والدواب للحمولة والحطب للتوقد والرماد للكلس (٣) ، والرمل للارض ، وكم عسى أن يحصي المحصي من هذا وشبهه . . أرأيت لو ان داخلا دخل داراً ، فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج اليه الناس ، ورأى كلما فيها مجموعا معداً لأسباب معروفة أكان يتوهم ان مثل هذا يكون بالاهمال ، ومن غير عمد ؟ فكيف يستجيز

---

(١) الارحاء جمع رحى وهي الطاحونة . (٢) التصحح من صحح المريض : أزال مرضه . (٣) الكلس : ـ بالكسر ـ ما يقوم به الحجر والرخام ونحوها ويتخذ منها باحراقها .

قائل لن يقول هذا من صنع الطبيعة في العالم ، وما أعد فيه من هذه الأشياء

اعتبر يا مفضل باشياء خلقت لمآرب الانسان ، وما فيها من التدبير فانه خلق له الحب لطعامه ، وكلف طحنه وعجنه وخبزه ، وخلق له الوبر لكسوته . فكلف ندفه وغزله ونسجه ، وخلق له الشجر ، فكلف غرسها وسقيها والقيام عليها ، وخلقت له العقاقير لأدويته ، فكلف لقطها (١) وخلطها وصنعها ، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال .

فانظر كيف كفى الخلقة التي لم يكن عنده فيها حيلة وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع عمل وحركة ، لما له في ذلك من الصلاح ، لأنه لو كفى هذا كله ، حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل ، لما حملته الأرض أشراً وبطراً (٢) ولبلغ به ذلك الى ان يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه ، ولو كفى الناس كلما يحتاجون اليه لما تهنأوا (٣) بالعيش ولا وجدوا له لذة . . ألا ترى لو ان امرءاً نزل بقوم ، فاقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج اليه من مطعم ومشرب وخدمة ، لتبرم بالفراغ ونازعته نفسه الى التشاغل بشيء ، فكيف لو كان طول عمره مكفيا لا يحتاج إلى شيء ؟ فكان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للانسان : ان جعل له فيها موضع شغل ، لكيلا تبرمه البطالة ، ولتكفه عن تعاطي مالا

---

(١) اللقط مصدر من لقط الشيء : اخذه من الأرض بلا تعب ، ولقط الطائر الحب : أخذه بمنقاره .

(٢) الأشر والبطر « كلاهما بالفتح » بمعنى واحد .

(٣) وفي نسخة البحار تهنوا .

يناله ، ولا خير فيه ان ناله .

﴿ الخبز والماء رأس معاش الانسان وحياته ﴾

واعلم يا مفضل ان رأس معاش الانسان وحياته : الخبز والماء . . فانظر كيف دبر الأمر فيهما ، فان حاجة الانسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز ، وذلك ان صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش ، والذي يحتاج اليه من الماء أكثر مما يحتاج اليه من الخبز ، لأنه يحتاج اليه لشربه ووضوئه وغسله وغسل ثيابه وسقي انعامه وزرعه ، فجعل الماء مبذولا لا يشترى لتسقط عن الانسان المؤنة في طلبه وتكلفه ، وجعل الخبز متعذراً لاينال إلا بالحيلة والحركة ، ليكون للانسان فى ذلك شغل يكفه عما يخرجه اليه الفراغ من الأشر والعبث . . ألا ترى ان الصبي يُدفع إلى المؤدب ، وهو طفل لم تكمل ذاته للتعليم ، كل ذلك ليشتغل عن اللعب والعبث الذين ربما جنيا عليه وعلى اهله المكروه العظيم . وهكذا الانسان لو خلا من الشغل ، لخرج من الأشر والعبث والبطر ، إلى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه واعتبر ذلك بمن نشأ في الجدة (١) ورفاهية العيش والترفه والكفاية ، وما يخرجه ذلك اليه .

﴿ اختلاف صور الناس وتشابه الوحوش والطير وغيرها ﴾
﴿ من الحكمة فى ذلك ﴾

اعتبر لم لايتشابه الناس واحد بالآخر ، كما تتشابه الوحوش والطير وغير ذلك ، فانك ترى السرب من الظباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق

(١) الجدة ـ بالتخفيف ـ الغنى .

بين واحد منها وبين الأخرى ، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم ، حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفه واحدة . والعلة في ذلك ان الناس محتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم ، لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهائم مثل ذلك : فيحتاج إلى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته . ألا ترى ان التشابه فى الطير والوحش لا يضرها شيئاً ، وليس كذلك الانسان ، فانه ربما تشابه التوأم (١) تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة على الناس فى معاملتهما ، حتى يعطى أحدهما بالآخر ، ويؤخذ احدهما بذنب الآخر (٢) ، وقد يحدث مثل هذا في تشابه الاشياء . فضلا عن تشابه الصور ، فمن لطف بعباده بهذه الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال ، حتى وقف بها على الصواب ، إلا من وسعت رحمته كل شيء .

لو رأيت تمثال الانسان مصوراً على حائط ، وقال لك قائل : ان هذا ظهر هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع ! . . أ كنت تقبل ذلك ، بل كنت تستهزيء به ، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد ، ولا تنكر في الانسان الحي الناطق .

---

(١) التوأم : المولود مع غيره فى بطن واحد جمعه توائم . وفي جميع النسخ توأمان وورودها هنا خطأ ظاهر ، إذ لا يجوز فيها لأكثر من فردين ، ومجيؤها بهذا النص دلالة على التثنية فيكون معناها اربعة أفراد

(٢) أي قد يشتبه مال شخص بمال شخص آخر كثوب او دينار فيصير سببا للاشتباه والتشاجر والتنازع فضلا عن تشابه الصورة فانه أعظم فساداً

﴿ نمو ابدان الحيوان وتوقفها وسبب ذلك ﴾

لم صارت ابدان الحيوان - وهي تغتذي ابدا - لا تنمي ، بل تنتهي إلى غاية من النمو ، ثم تقف ولا تتجاوزها ، لولا التدبير في ذلك ، فان تدبير الحكيم فيها أن تكون ابدان كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبير والصغير ، وصارت تنمى حتى تصل الى غايتها ، ثم تقف ثم لا تزيد ، والغذاء مع ذلك دائم لا ينقطع ولو تنمي نموا دائما لعظمت ابدانها ، واشتبهت مقاديرها (١) حتى لا يكون لشيء منها حد يعرف .

﴿ ما يعتري أجسام الانس من ثقل الحركة والمشي لو لم يصبها ألم ﴾

لم صارت أجسام الانس خاصة تثقل عن الحركة والمشي ، وتجفو عن الصناعات اللطيفة (٢) ، ألا لتعظيم المؤنة فيما يحتاج اليه الناس للملبس والمضجع والتكفين وغير ذلك ، لو كان الانسان لا يصيبه ألم ولا وجع ، بم كان يرتدع عن الفواحش ، ويتواضع لله ، ويتعطف على الناس . . . أما ترى الانسان اذا عرض له وجع خضع واستكان ورغب إلى ربه في العافية ، وبسط يده بالصدقة ، ولو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان

(١) اي لم يعرف غاية ما ينتهي اليه مقداره ، فيشتبه الأمر عليه ، فيما يريد أن يهيئه لنفسه من دار وثياب وزوجة .

(٢) أي يبتعد ويجتنب ولا يداوم على الصناعات اللطيفة أي التي فيها دقة ولطافة . والمراد ان الله تعالى جعل اجسام الانسان بحيث تثقل عن الحركة والمشي قبل سائر الحيوانات ، وتكل عن الاعمال الدقيقة لتعظم عليه مؤونة تحصيل ما يحتاج اليه ، فلا يبطر ولا يطمع . او ليكون لهذه الاعمال أجر ، فيصير سببا لمعائش أقوام يزاولونها .

يعاقب الدُّعار (١) ويذل العصاة المردة ، وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات ، وبم كان العبيد يذلون لأربابهم ، ويذعنون لطاعتهم . أفليس هذا توبيخ (ابن ابي العوجاء) (٢) وذويه الذين جحدوا التدبير .

(والمانوية) الذين انكروا الوجع والألم .

﴿ انقراض الحيوان لو لم يلد ذكوراً واناثاً ﴾

ولو لم يولد من الحيوان إلا ذكر فقط او انثى فقط ألم يكن النسل منقطعاً وباد مع أجناس الحيوان ، فصار بعض الاولاد يأتي ذكوراً وبعضها يأتي اناثاً ليدوم التناسل ولا ينقطع .

﴿ ظهور شعر العانة عند البلوغ ونبات اللحية للرجل دون

المرأة وما في ذلك من التدبير ﴾

لم صار الرجل والمرأة اذا أدركا تنبت لهما العانة ، ثم تنبت اللحية للرجل ، وتتخلف عن المرأة ، لو لا التدبير في ذلك ، فانه لما جعل الله تبارك وتعالى الرجل قيماً ورقيباً على المرأة ، وجعل المرأة عرساً وخولاً (٣) للرجل ، اعطى الرجل اللحية ، لما له من العز والجلالة والهيبة ، ومنعها المرأة ، لتبقى لها نظارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة (٤) والمضاجعة

---

(١) الدعار جمع داعر وهو الخبيث . وفي النسخة المطبوعة الذعار بالذال وهذا تصحيف . (٢) تقدمت ترجمة ابن ابي العوجاء في مقدمة الكتاب. (٣) الخول ـ بفتحتين ـ : العبيد والاماء وغيرهم من الحاشية وهو يستعمل بلفظ واحد للجميع ، وربما قيل للواحد خائل .

(٤) المفاكهة : هي المازحة والمضاحكة .

أفلا ترى الحلقة كيف تأتي بالصواب في الأشياء ، وتتخلل مواضع الخطأ (١) فتعطي وتمنع على قدر الارب (٢) والمصلحة بتدبير الحكيم عزوجل

قال المفضل : ثم حان وقت الزوال ، فقام مولاي الى الصلاة ، وقال : بكّر (٣) إليّ غداً انشاءالله تعالى . . فانصرفت من عنده مسروراً بما عرفته ، مبتهجاً بما اوتيته ، حامداً لله تعالى عزوجل على ما انعم به عليّ شاكراً لأنعمه على ما منحني بما عرفنيه مولاي ، وتفضل به علي ، فبت في ليلتي مسروراً بما منحيه ، محبوراً بما علمنيه .

---

(١) يحتمل أن تكون الجملة حالية ، اي تأتي بالصواب مع انها تدخل مواضع هي مظنة الخطأ من قولهم تخللت القوم اي دخلت خلالهم ويحتمل أن يكون المراد بالتخلل التخلف أو الخروج من خلالها ، لكن تطبيقها على المعاني اللغوية يدعو الى التكلف .

(٢) الارب - بفتحتين - : الحاجة والغاية والجمع آراب .

(٣) بكر - بالتشديد - أتاه بكرة .

المجلس الثاني

قال المفضل : فلما كان اليوم الثاني بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت ، فامرني بالجلوس فجلست فقال : —

الحمد لله مدبّر الادوار (١) ، ومعيد الاكوار (٢) ، طبقاً (٣) عن طبق ، وعالماً بعد عالم ، ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، عدلاً منه ، تقدست أسماؤه ، وجات آلاؤه ، لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، يشهد بذلك قوله جل قدسه (فمن يَعمل مِثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَه ، ومَن يَعمل مِثقالَ ذرةٍ شراً يَرَه) في نظائر لها (٤) في كتابه الذي فيه تبيان كل شيء ولا يأتيه الباطلُ مِن بين يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ) ولذلك قال سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى آله : « انما هي أعمالكم ترد اليكم »

ثم أطرق الامام هنيئة وقال : يا مفضل الخلق حيارى عمهون (٥) سكارى فى طغيانهم يترددون ، وبشياطينهم وطواغيتهم يقتدون ، بصراء

(١) الادوار جمع دور مصدر بمعنى الحركة . (٢) الاكوار جمع كور — بالفتح — مصدر بمعنى الجماعة الكثيرة او القطيع من الابل والبقر ويقال كل دور كور والمراد اما استيناف قرن بعد قرن وزمان بعد زمان

(٣) الطبق : وجه الارض ولعل المراد به معنى الحال يقال : الدهر اطباق ، اي أحوال تختلف . (٤) اي قالها فى ضمن نظائرها أو مع نظائرها . (٥) عمهون جمع عمه — بفتح فكسر — وهو المتردد في الضلال والمتحير في أمره أو طريقه .

عمى لا يبصرون ، نطقاء بكم (١) لا يعقلون ، سُمعاء (٢) صُم (٣) لا يسمعون ، رضوا بالدون (٤) . وحسبوا انهم مهتدون ، حادوا (٥) عن مدرجة (٦) الاكياس (٧) ورتعوا فى مرعى الارجاس «٨» الانجاس ، كأنهم من مفاجآت الموت آمنون ، وعن المجازات مزحزحون ، يا ويلهم ما أشقاهم ، وأطول عناءهم واشد بلاءهم « يومَ لا يُغنى مَولىً عن مولى شيئاً ولا هُم يُنصرون إلا مَن رَحِمَ الله » .

قال المفضل : فبكيت لما سمعت منه ! . فقال : لا تبك تخلصت اذ قبلت ، ونجوت اذ عرفت .

﴿ أبنية أبدان الحيوان وتهيئها وايضاح ذلك ﴾

ثم قال : ابتدىء لك بذكر الحيوان ليتضح لك من أمره ما وضح لك من غيره . فكر فى أبنية أبدان الحيوان ، وتهيئتها على ما هي عليه فلا هي صلاب كالحجارة . ولو كانت كذلك لا تنثني «٩» ولا تتصرف

---

(١) بكم جمع أبكم وهو الاخرس .

(٢) سمعاء جمع سميع بمعنى السامع والمسمع وهو للمبالغة .

(٣) الصم جمع أصم وهو الذى انسدت اذنه وثقل سمعه او ذهب عنه بتاتا . (٤) الدون أريد به هنا معنى الخسيس الحقير السافل .

(٥) حادوا : مالوا . (٦) مدرجة جمع مدارج : ما يساعد على التوصل الى ما هو افضل او أعلى منه . (٧) الاكياس : جمع كيس - بتشديد الياء - اي الفطن الحسن الفهم والادب .

(٨) الارجاس لعله جمع رجس - بالكسر - القذر والمأثم او كل ما استقذر من العمل والعمل المؤدي الى العذاب .

(٩) لا تنثني : لاتنعطف ولا تميل .

في الاعمال ، ولا هي على غاية اللين والرخاوة ، فكانت لا تتحامل ، ولا تستقل بانفسها ، فجعلت من لحم رخو ينثني ، تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب وعروق تشده ؛ وتضم بعضه إلى بعض . وغلفت «١» فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله واشباه ذلك . هذه التماثيل التي تعمل من العيدان ، وتلف بالخرق وتشد بالخيوط ، وتطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام ، والخرق بمنزلة اللحم ، والخيوط بمنزلة العصب والعروق ، والطلاء بمنزلة الجلد ، فان جاز أن يكون الحيوان المتحرك حدث بالاهمال من غير صانع جاز أن يكون ذلك في هذه التماثيل الميتة . فان كان هذا غير جائز فى التماثيل فبالحرى أن لا يجوز في الحيوان .

﴿ أجساد الانعام وما اعطيت وما منعت وسبب ذلك ﴾

وفكر يا مفضل - بعد هذا - فى أجساد الانعام «٢» فانها حين خلقت على ابدان الانس من اللحم والعظم والعصب ، اعطيت ايضا السمع والبصر ليبلغ الانسان حاجته ، فانها لو كانت عمياً صماً لما انتفع بها الانسان ولا تصرفت في شيء من مآربه ، ثم منعت الذهن والعقل لتذل للانسان ، فلا تمتنع عليه ، اذا كدها الكد الشديد ، وحملها الحمل الثقيل . فان قال قائل انه قد يكون للانسان عبيد من الانس ، يذلون ويذعنون بالكد الشديد ، وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن . فيقال فى جواب ذلك ان هذا الصنف من الناس قليل ، فاما أكثر الناس فلا يذعنون بما تذعن

(١) في نسخة وعليت .
(٢) الانعام جمع نعم - بفتحتين - الابل وتطلق على البقر والغنم .

به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك ، ولا يغرون (١) بما يحتاج اليه منه . . ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بابدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال ، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد الى عدة اناسي ، فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل لشيء من الصناعات مع مايلحقه من التعب الفادح في ابدانهم والضيق والكد فى معاشهم .

﴿ خلق الاصناف الثلاثة من الحيوان ﴾

فكر يا مفضل فى هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان وفي خلقها ، على ما هي عليه . مما فيه صلاح كل واحد منها . فالانس لما قدروا أن يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والتجارة والصياغة والخياطة وغير ذلك خُلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الأشياء ، واوكدها هذه الصناعات .

﴿ آكلات اللحم من الحيوان والتدبير في خلقها ﴾

وآكلات اللحم لما قدر أن تكون معائشها من الصيد ، خُلقت لهم أكف لطاف مدمجة (٢) ذوات براثن (٣) ومخالب (٤) تصلح لأخذ

---

(١) لا يغرون - بالغين على بناء المفعول - اي لا يؤثر فيهم الاغراء والتحريض على جميع الاعمال التي يحتاج اليها الخلق من ذلك العمل الذى تأتي به الدواب . (٢) مدمجة أي مستقيمة محكمة متداخلة .

(٣) البراثن جمع برثن - بالضم - من السباع والطير بمنزلة الاصبع من الانسان . (٤) المخالب جمع مخلب - بالكسر - وهو الظفر خصوصا من السباع

الصيد ولا تصلح للصناعات ، وآكلات النبات لما قدر أن يكونوا ، لا ذوات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها اضلاف تقيها خشونة الارض اذا حاولت طلب المرعى ، ولبعضها حوافر ململمة (١) ذوات قعر (٢) كأخمص القدم تنطبق على الارض عند تهيئها للركوب والحمولة .

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان ، حين خلقت ذوات أسنان حداد ، وبراثن شداد ، واشداق (٣) وافواه واسعة ، فانه لما قدر ان يكون طعمها (٤) اللحم خُلقت خلقة تشا كل ذلك واعينت بسلاح ، وأدوات تصلح للصيد ، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيئة لفعلها ، ولو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قداعطيت ما لا تحتاج اليه ، لانها لا تصيد ولا تأكل اللحم ، ولو كانت السباع ذوات اظلاف كانت قد منعت ما تحتاج اليه ، اعني السلاح الذي تصيدبه وتتعيش . أفلا ترى كيف أعطى كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته . بل ما فيه بقاؤه وصلاحه .

﴿ ذوات الاربع واستقلال اولادها ﴾

انظر الآن الى ذوات الاربع كيف تراها تتبع أماتها (٥) مستقلة بانفسها لا تحتاج الى الحمل والتربية كما تحتاج أولاد الانس ، فمن أجل انه

---

(١) ململمة اي مجموعة بعضها الى بعض (٢) قعر كل شيء اقصياه
(٣) الاشداق جمع شدق ـ بالفتح او الكسر ـ زاوية الفم من باطن الخدين
(٤) الطعم ـ بالضم ـ الطعام . (٥) الامات جمع ام وقيل انها تستعمل في البهائم ، واما في الناس فهي امهات .

ليس عند أماتها ما عند امهات البشر من الرفق والعلم بالتربية ، والقوة عليها بالاكف والاصابع المهيأة لذلك أعطيت النهوض والاستقلال بانفسها وكذلك ترى كثيراً من الطير كمثل الدجاج والدرّاج (١) والقبج (٢) ، تدرج وتلقط حين تنقاب عنها البيضة . فاما ما كان منها ضعيفاً لا نهوض فيه ، كمثل فراخ الحمام واليمام (٣) والحمّر (٤) فقد جعل في الامهات فضل عطف عليها ، فصارت تمج (٥) الطعام في أفواهها بعد ماتوعيه (٦) حواصلها (٧) فلا تزال تغذوها حتى تستقل بانفسها ، ولذلك لم ترزق الحمام فراخا كثيرة مثل ماترزق الدجاج ، لتقوى الام على تربية فراخها فلا تفسد ولا تموت فكلاً أعطى بقسط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير .

﴿ قوائم الحيوان وكيفية حركتها ﴾

انظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتي أزواجاً ، لتتهيأ للمشي ، ولو

---

(١) الدراج - بضم فتشديد - طائر شبيه بالحجل واكبر منه أرقط بسواد وبياض قصير المقار يطلق على الذكر والانثى ، جمعه دراريج وواحدته دراجة والتاء للوحدة لا للتأنيث .

(٢) القبج - بفتحتين - طائر يشبه الحجل وفي القاموس هو الحجل والواحدة قبجة تقع على الذكر والانثى .

(٣) اليمام : الحمام الوحشي .

(٤) الحمّر - بضم فتشديد - طائر أحمر اللون والواحدة حمّرة .

(٥) تمج الطعام اي ترمي به .

(٦) توعيه من أوعى الزاد ونحوه اى جعله في الوعاء .

(٧) الحواصل كانها جمع حوصلة وحوصلاء وهي من الطير بمنزلة المعدة من الانسان .

كانت افراداً لم تصلح لذلك ، لان الماشي ينقل قوائمه يعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على واحدة ، وذو الاربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف ، لان ذا الاربع لو كان ينقل قائمتين من احد جانبيه ، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر ، لم يثبت على الارض ، كما يثبت السرير وما اشبهه ، فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره ، وينقل الاخريين ايضاً من خلاف ، فيثبت على الارض ، ولا يسقط اذا مشى .

﴿ انقياد الحيوانات المسخرة للانسان وسببه ﴾

أما ترى الحمار كيف يذل للطحن والحمولة وهو يرى الفرس مودعا منعماً ، والبعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان ينقاد للصبي ؟ والثور الشديد كيف كان يذعن لصاحبه ، حتى يضع النير (١) على عنقه ، ويحرث به ؟ والفرس الكريم يركب (٢) السيوف والاسنة بالمواتاة لفارسه والقطيع من الغنم يرعاه واحد ، ولو تفرقت الغنم فاخذ كل واحد منها في ناحية لم يلحقها . وكذلك جميع الاصناف المسخرة للانسان . . كانت كذلك ؟ الا بانها عدمت العقل والروية ، فانها لو كانت تعقل وتتروى فى الامور كانت خليقة ان تلتوى على الانسان في كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده والثور على صاحبه ، وتتفرق الغنم عن راعيها واشباه هذا من الامور .

(١) النير - بالكسر - الخشبة المعترضة فى عنق الثورين بأداتها والجمع أنيار ونيران . (٢) يركب السيوف والاسنة اي يلقي نفسه عليها .

﴿ افتقاد السباع للعقل والروية وفائدة ذلك ﴾

وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت (١) على الناس ، كانت خليقة أن تجتاحهم ، فمن كان يقوم للاسد والذئاب والنمور والدببة ، لو تعاونت وتظاهرت على الناس ؟ . . أفلا ترى كيف حجر (٢) ذلك عليها وصارت مكان ما كان يخاف من أقدامها ونكايتها ، تهاب مساكن الناس وتحجم عنها ، ثم لا تظهر ولا تنتشر لطاب قوتها إلا بالليل ، فهي مع صولتها كالخائف من الانس بل مقموعة (٣) ممنوعة منهم ولو كان ذلك لساورتهم في مساكنهم ، وضيقت عليهم .

﴿ عطف الكلب على الانسان ومحاماته عنه ﴾

ثم جعل في الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه ومحاماة عنه ، وحافظ له ، ينتقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الذعار عنه ، ويبلغ من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دونه ودون ماشيته وماله ويألفه غاية الألف (٤) حتى يصبر معه على الجوع والجفوة . . فلمَ طبع الكلب على هذه الالفة والمحبة ؟ إلا ليكون حارساً للانسان له عين (٥) بانياب (٦) ومخالب ، ونباح هائل ، ليذعر منه

---

(١) توازرت أي اجتمعت واتحدت .

(٢) حجر عليه الأمر : حرّمه ومنعه .

(٣) مقموعة : مقهورة ذليلة .

(٤) الالف ـ بفتح فسكون ـ المحبة والانس .

(٥) العين ـ بالفتح ـ الغلظ في الجسم والخشونة .

(٦) الانياب جمع ناب وهو السن خلف الرباعية مؤنث .

السارق ، ويتجنب المواضع التي يحميها ويخفرها (١) .

﴿ وجه الدابة وفمها وذنبها وشرح ذلك ﴾

يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو . . ؟ فانك ترى العينين شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها ، لئلا تصدم حائطاً ، أو تتردى في حفرة وترى الفم مشقوقاً شقاً في أسفل الخطم (٢) ولو شق كمكان الفم من الانسان فى مقدم الذقن ، لما استطاع أن يتناول به شيئاً من الأرض ألا ترى ان الانسان لا يتناول الطعام بفيه ولـكن بيده ، تكرمة له على سائر الآكلات ، فلما لم يكن للدابة يد تتناول بها العلف جعل خرطومها (٣) مشقوقاً من أسفله ، لتقبض على العلف ثم تقضمه ، واعينت بالجحفلة (٤) لتتناول بها ما قرب وما بعد . . اعتبر بذنبها والمنفعة لها فيـه ، فانه بمنزلة الطبق (٥) على الدبر والحياء جميعاً ، يواريهما ويسترهما ، ومن منافعها فيـه ان ما بين الدبر ومراقي البطن منها وضر (٦) يجتمع عليها الذباب والبعوض فجعل لها الذنب كالمذبة (٧) تذب بها عن تلك المواضع ، ومنها ان الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة ، فانه لما كان قيامها على الأربع باسرها ، وشغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف والتقلب ، كان لها

---

(١) يخفرها : يجيرها ويؤمنها . (٢) خطم الدابة : مقدم انفها وفمها
(٣) الخرطوم : الأنف أو مقدمه أو ما ضممت عليه الحنكين .
(٤) الجحفلة هي لذات الحافر كالشفة للانسان .
(٥) الطبق ـ بفتحتين ـ مصدر الغطاء جمعه أطباق .
(٦) الوضر ـ بفتحتين ـ مصدر الوسخ .
(٧) المذبة ـ بالكسر ـ ما يذب به الذباب .

في تحريك الذنب راحة ، وفيه منافع اخرى يقصر عنها الوهم ، فيعرف موقعها فى وقت الحاجه اليها ، فمن ذلك ان الدابة ترتطم فى الوحل (١) ، فلا يكون شيء أعون على نهوضها ، من الأخذ بذنبها ، وفى شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها في مآربهم ، ثم جعل ظهرها مسطحاً مبطوحا على قوائم اربع ليتمكن من ركوبها ، وجعل حياها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها ، ولو كان اسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها . . ألا ترى انه لا يستطيع ان يأتيها كفاحاً (٢) كما يأتي الرجل المرأة .

﴿ الفيل ومشفره ﴾

تأمل مشفر (٣) الفيل وما فيه من لطيف التدبير ، فانه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء ، وازدرادهما إلى جوفه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض ، لأنه ليست له رقبة يمدها كسائر الانعام ، فلما عدم العنق أُعين مكان ذلك بالخرطوم الطويل ليسدله ، فيتناول به حاجته . . فمن ذا الذي عوضه مكان العضو الذي عدم ما يقوم مقامه إلا الرؤوف بخلقه ؟ وكيف يكون هذا بالاهمال - كما قالت الظلمة - ؟ فان قال

---

(١) الوحل - بفتحتين - الطين الرقيق جمعه وحول وأوحال .

(٢) الكفاح - بالكسر - الملاقاة وجها لوجه .

(٣) المشفر - بكسر فسكون ففتح - الشفة وتستعمل للبعير الا ان الامام الصادق عدل المعنى الى خرطوم الفيل إذ هو بمثابة الشفاه ، بل هو شفاهه الحقيقية التي بها يتناول العلف والماء .

قائل : فما باله لم يُخلق ذا عنق كسائر الأنعام ؟ قيل له ان رأس الفيل وأذنيه أمر عظيم ، وثقل ثقيل ، فلو كان ذلك على عنق عظيم ، لهدها وأوهنها ، فجعل رأسه ملصقاً بجسمه لكيلا يناله منه ما وصفناه ، وخلق له مكان العنق هذا المشفر ليتناول به غذاءه ، فصار - مع عدم العنق - مستوفيا ما فيه بلوغ حاجته .

﴿ حياء الانثى من الفيلة ﴾

انظر الآن كيف جعل حياء الانثى من الفيلة فى أسفل بطنها ؟ فاذا هاجت للضراب ارتفع وبرز ، حتى يتمكن الفحل من ضربها . . فاعتبر كيف جعل حياء الانثى من الفيلة على خلاف ما عليه في غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للامر الذي فيه قوام النسل ودوامه

﴿ الزرافة وخلقتها وكونها ليست من لقاح أصناف شتى ﴾

فكر في خلق الزرافة ، واختلاف اعضائها ، وشبهها باعضاء اصناف من الحيوان . فرأسها رأس فرس ، وعنقها عنق جمل ، وأظلافها أظلاف بقرة ، وجلدها جلد نمر .

وزعم ناس من الجهال بالله عزوجل : ان نتاجها من فحول شتى ، قالوا : وسبب ذلك ان اصنافاً من حيوان البر اذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة ، وينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من اصناف شتى

وهذا جهل من قائله ، وقلة معرفة بالباري جل قدسه ، وليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف ، فلا الفرس يلقح الجمل ، ولا الجمل يلقح البقر ، وانما يكون التلقيح من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب

من خلقه ، كما يلقح الفرس الحمار ، فيخرج بينهما البغل ، ويلقح الذئب الضبع ، فيخرج من بينهما السمع (١) . على انه ليس يكون في الذي يخرج من بينهما عضو كل واحد منهما ، كما في الزرافة ، عضو من الفرس وعضو من الجمل ، واظلاف من البقرة ، بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما ، كالذي تراه في البغل ، فانك ترى رأسه وأذنيه وكفله (٢) وذنبه وحوافره وسطاً بين هذه الأعضاء من الفرس والحمار وشحيجه (٣) ، كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار ، فهذا دليل على انه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان ، كما زعم الجاهلون ، بل هي خلق عجيب من خلق الله للدلالة على قدرته التي لا يعجزها شيء ، وليعلم انه خالق أصناف الحيوان كلها ، يجمع بين ما يشاء من اعضائها في ايها شاء ويفرق ما شاء منها في ايها شاء . ويزيد في الخلقة ما شاء وينقص منها ما شاء ، دلالة على قدرته على الاشياء ، وانه لا يعجزه شيء اراده جل وتعالى . . فاما طول عنقها والمنفعة لها في ذلك فان منشأها ومرعاها في غياطل (٤) ذوات أشجار شاهقة ، ذاهبة طولا في الهواء فهي تحتاج الى طول العنق لتتناول بفيها أطراف تلك الأشجار فتقوت من ثمارها .

---

(١) السمع ـ بكسر فسكون ـ ولد الذئب من الضبع والانثى سمعة

(٢) الكفل ـ بفتحتين ـ من الدابة : العجز أو الردف والجمع اكفال

(٣) الشحيج من شحج البغل : صوّت وغلظ صوته .

(٤) الغياطل جمع غيطل وهو الشجر الكثير الملتف .

﴿ القرد وخلقته والفرق بينه وبين الانسان ﴾

تأمل خلقة القرد وشبهه بالانسان في كثير من اعضائه أعني الرأس والوجه والمنكبين والصدر . وكذلك أحشاؤه شبيهة ايضاً باحشاء الانسان وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يؤمي اليه ويحكي كثيراً مما يرى الانسان يفعله . حتى انه يقرب من خلق الانسان وشمائله فى التدبير في خلقته على ما هي عليه . ان يكون عبرة للانسان فى نفسه فيعلم انه من طينة البهائم وسنخها (١) اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب . وانه لولا فضيلة فضله بها فى الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم على ان فى جسم القرد فضولا اخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم (٢) والذنب المسدل والشعر المجال للجسم كله . وهذا لم يكن مانعا للقرد ان يلحق بالانسان لو اعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه والفصل الفاصل بينه وبين الانسان ـ في الحقيقة ـ هو النقص فى العقل والذهن والنطق .

﴿ اكساء أجسام الحيوانات وخلقة اقدامها بعكس الانسان ﴾

﴿ وأسباب ذلك ﴾

انظر يا مفضل الى لطف الله جل اسمه بالبهائم كيف كسيت اجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف لتقيها من البرد وكثرة الآفات البست الاظلاف والحوافر والاخفاف لتقيها من الحفاء (٣) اذ كانت لا

(١) السنخ ـ بالكسر ـ الاصل والجمع اسناخ وسنوخ .
(٢) الخطم من الدابة : مقدم انفها وفمها .
(٣) الحفا هو المشي بلا خف ولا نعل .

ايدي لها ولا اكف ولا اصابع مهيأة للغزل والنسج فكفوا بان جعل كسوتهم في خلقهم باقية عليهم مابقوا لا يحتاجون إلى تجديدها واستبدال بها

فاما الانسان فانه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل . فهو ينسج ويغزل . ويتخذ لنفسه الكسوة . ويستبدل بها حالا بعد حال . وله في ذلك صلاح من جهات من ذلك انه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه اليه الكفاية . ومنها انه يستريح الى خلع كسوته اذا شاء ولبسها اذا شاء ومنها ان يتخذ لنفسه من الكسوة ضروباً لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها وكذلك يتخذ بالرفق من الصنعة ضروباً من الخفاف (١) والنعال يقي بها قدميه . وفي ذلك معائش لمن يعمله من الناس ومكاسب يكون فيها معائشهم ومنها اقواتهم واقوات عيالهم . فصار الشعر والوبر والصوف يقوم للبهائم مقام الكسوة والأظلاف (٢) والحوافر والاخفاف مقام الحذاء .

﴿ موارات البهائم عند احساسها بالموت ﴾

فكر يا مفضل في خلقة عجيبة جعلت في البهائم . فانهم يوارون (٣) انفسهم اذا ماتوا ، كما يوارى الناس موتاهم ، وإلا فاين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها ، لا يرى منها شيء ، وليست قليلة فتخفى لقلتها ؟ بل لو قال قائل : انها اكثر من الناس لصدق .

---

(١) الخفاف جمع خف ـ بالضم ـ وهو ما يلبس بالرجل .

(٢) الاظلاف جمع ظلف ـ بالكسر ـ وهو لما اجتر من الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر للفرس .

(٣) يوارون انفسهم : يخفونها .

فاعتبر في ذلك بما تراه في الصحارى والجبال من اسراب الظباء (١) والمها (٢) والحمير الوحش والوعول (٣) والأيائل (٤) وغير ذلك من الوحوش واصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها ، وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض ، وكذلك اسراب الطير من الغربان والقطا والإوز والكراكي (٥) والحمام وسباع الطير جميعاً ، وكلها لا يرى منها اذا ماتت إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص او يفترسه سبع ، فاذا أحسوا بالموت كمنوا في مواضع خفية فيموتون فيها ، ولولا ذلك لامتلأت الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الأمراض والوباء

فانظر إلى هذا بالذي يخلص اليه الناس : وعملوه بالتمثيل (٦) الأول الذي مُثل لهم كيف جعل طبعاً واذكاراً (٧) في البهائم وغيرها ، ليسلم

---

(١) الظباء جمع ظبية وهي انثى الغزال .

(٢) المها : جمع مهاة وهي البقرة الوحشية .

(٣) الوعول جمع وعل وهو تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين .

(٤) الايائل جمع أيل ـ بفتح فتشديد ـ حيوان من ذوات الظلف للذكور منه قرون متشعبة لا تجويف فيها ، أما الاناث فلا قرون لها .

(٥) الكراكي جمع كركي ـ بضم فسكون فكسر ـ طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتر الذنب قليل اللحم .

(٦) المراد بالتمثيل ما ذكره الله تعالى في قصة قابيل .

(٧) في الأصل المطبوع ادكاراً بالدال المهملة ، ولكن الاذكار أوضح وهو من قولهم ذكر الشيء : حفظه في ذهنه .

الناس من معرّة (١) ما يحدث عليهم من الأمراض والفساد .

﴿ الفطن التي جعلت في البهائم : الايل والثعلب والدلفين ﴾

فكر يا مفضل في الفطن التي جعلت فى البهائم لمصلحتها ، بالطبع والخلقة ، لطفاً من الله عز وجل لهم ، لئلا يخلو من نعمه جل وعز احد من خلقه لا بعقل وروية ، فان (الأيّل) يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع من شرب الماء ، خوفاً من أن يدب السم فى جسمه فيقتله ، ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً ، فيعج عجيجاً عالياً ، ولا يشرب منه ، ولو شرب لمات من ساعته .

فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة ، من تحمل الظمأ الغالب الشديد ، خوفا من المضرة في الشرب ، وذلك مما لا يكاد الانسان العاقل المميز يضبطه من نفسه .

و (الثعلب) اذا اعوزه الطعم ، تماوت ونفخ بطنه ، حتى يحسبه الطير ميتاً ، فاذا وقعت عليه لتنهشه ، وثب عليها فاخذها . . فمن أعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة ، إلا من توكل بتوجيه الرزق له من هذا وشبهه . فانه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما تقوى عليه السباع من مساورة الصيد ، اعين بالدهاء والفطنة والاحتيال لمعاشه .

و (الدلفين) (٢) يلتمس صيد الطير ، فيكون حيلته في ذلك أن

---

(١) المعرة : الأمر القبيح والمساءة والاثم والاذى .

(٢) الدلفين ـ بضم فسكون ـ دابة بحرية كبيرة والجمع دلافين ، واللفظ دخيل ومرادفه في العربية الدخس ـ بضم ففتح ـ .

يأخذ السمك فيقتله ويسرحه (١) حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثور الماء الذي عليه حتى لا يتبين شخصه ، فاذا وقع الطير على السمك الطافي وثب اليها فاصطادها .

فانظر إلى هذه الحيلة كيف جعلت طبعاً فى هذه البهيمة لبعض المصلحة .

﴿ التنين والسحاب ﴾

قال المفضل فقلت : اخبرني يا مولاي عن التنين (٢) والسحاب ، فقال عليه السلام : إن السحاب كالموكل به ، يختطفه حيثما ثقفه (٣) كما يختطف حجر المغناطيس الحديد ؛ فهو لا يطلع رأسه فى الأرض خوفا من السحاب ، ولا يخرج إلا في القيظ (٤) مرة اذا صحت السماء ، فلم يكن فيها نكتة (٥) من غيمة ، قلت فلم وكّل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه اذا وجده ؟ قال : ليدفع عن الناس مضرته (٦) .

---

(١) في الأصل المطبوع يشرحه بالشين ، لكن كلمة يسرحه هنا اكثر أداء للمعنى المقصود .

(٢) التنين ـ بالكسر ـ الحية العظيمة والجمع تنانين .

(٣) ثقفه : أدركه وظفر به .

(٤) القيظ : حميم الصيف وشدة الحر والجمع أقياظ وقيوظ .

(٥) النكتة : النقطة السوداء فى الأبيض او البيضاء في الأسود والجمع نكت ونكات .

(٦) الذي يظهر ان هذا الأمر الغريب كان معروفاً عند العرب الأوائل ، وقد ورد ذكره في الشعر القديم ، كالذي جاء في قصيدة للشاعر العباسي اسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري المتوفى سنة ١٧٣ ، فقال من تلك القصيدة التي يذكر فيها إحدى فضائل الامام علي : —

﴿ فى الذرة والنمل واسد الذباب والعنكبوت وطبائع كل منها ﴾

قال المفضل فقلت : قد وصفت لي يا مولاي من أمر البهائم ما فيه معتبر لمن اعتبر ، فصف لي الذرة والنملة والطير ، فقال عليه السلام يامفضل تأمل وجه « الذرة » الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصا عما فيه صلاحها ، فمن اين هذا التقدير والصواب فى خلق الذرة ؟ إلا من التدبير القائم فى صغير الخلق وكبيره .

انظر الى « النمل » واحتشاده في جمع القوت واعداده ، فانك ترى الجماعة منها اذا نقلت الحب الى زُبيتها (١) بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام اوغيره ، بل للنمل فى ذلك من الجد والتشمير ماليس للناس مثله .. أما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل ، ثم يعمدون الى الحب فيقطعونه قطعاً . لكيلا ينبت فيفسد عليهم ، فان أصابه ندى اخرجوه فنشروه حتى يجف ، ثم لا يتخذ النمل الزبيه إلا في نشز (٢) من الارض كيلا يفيض السيل فيغرقها ، وكل هذا منه بلا عقل ولا روية ، بل خلقة

— ألا يا قوم للعجب العجاب ... لخف أبي الحسين وللحباب
عدو من عداة الجن عبد ... بعيد في المرادة من صواب
كريه اللون اسود ذو بصيص ... حديد الناب أزرق ذو لعاب
أتى خفا له فانساب فيه ... لينهش رجله منها بناب
فقض من السماء له عقاب ... من العقبان او شبه العقاب
فطار به فحلق ثم أهوى ... به للارض من دون السحاب

(١) الزبية ـ بضم فسكون ـ : الرابية لا يعلوها ماء جمعها زبى .

(٢) النشز ـ بفتحتين ـ المكان المرتفع جمعه نشاز وانشاز .

خلق عليها لمصلحة من الله جل وعز .

انظر الى هذا الذي يقال له الليث (١) وتسميه العامة « أسد الذباب » وما اعطى من الحيلة والرفق في معاشه ، فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه . تركه ملياً حتى كأنه موات لا حراك به ، فاذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه ، دب دبيباً دقيقاً ، حتى يكون منه بحيث تناله وثبته ، ثم يثب عليه فيأخذه ، فاذا أخذه اشتمل عليه بجسمه كله ، مخافة أن ينجو منه فلا يزال قابضاً عليه ، حتى يحس بانه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه ، ويحيي بذلك منه .

فاما « العنكبوت » فانه ينسج ذلك النسج ، فيتخذه ـ شركاً ومصيدة للذباب ، ثم يكمن (٢) في جوفه ، فاذا نشب فيه الذباب أحال(٣) عليه يلدغه ساعة بعد ساعة ، فيعيش بذلك منه .

فذلك (٤) يحكي صيد الكلاب والفهود ، وهذا (٥) يحكي صيد الاشراك والحبائل .

فانظر الى هذه الدويبة الضعيفة ، كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الانسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها ؟ فلا تزدري بالشيء اذا كانت

---

(١) الليث : ضرب من العناكب والجمع ليوث ومليثة .
(٢) فى الاصل المطبوع يتمكن وهو خطأ .
(٣) أحال : أقبل ووثب .
(٤) يعني به أسد الذباب .
(٥) يعني به العنكبوت وفي نسخة ـ هكذا ـ .

العبرة فيه واضحة كالذرة والنملة وما أشبه ذلك ، فان المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير ، فلا يضع منه ذلك (١) كما لا يضع من الدينار - وهو من ذهب - أن يوزن بمثقال من حديد .

﴿ جسم الطائر وخلقته ﴾

تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته ، فانه حين قدر أن يكون طائرا في الجو ، خفف جسمه وادمج (٢) خلقه ، واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ، ومن الاصابع الخمس على أربع ، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ، ثم خلق ذا جؤجؤ (٣) محدد ، ليسهل عليه ان يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه ، كما جُعلت السفينة بهذه الهيئة ، لتشق الماء وتنفذ فيه ، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان ، لينهض بها للطيران ، وكسا (٤) كله الريش ، ليتداخله الهواء فيقله (٥) . ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ ، نقص من خلقة الانسان وخلق له منقار صلب جاسي يتناول به طعمه ، فلا ينسحج (٦) من لقط الحب ، ولا يتقصف (٧) من نهش اللحم ، ولما عدم الاسنان ، وصار

(١) اى لا ينقص من قدر المعنى النفيس تمثيله بالشيء الحقير .
(٢) أدمج خلقه : لفه وأحسنه .
(٣) الجؤجؤ من الطائر والسفينة : الصدر والجمع جآجيء .
(٤) في الاصل كتبت بالالف المقصورة وهي خطأ .
(٥) يقله : يحمله ويرفعه .
(٦) ينسحج : أي ينتشر .
(٧) يتقصف : أي يتكسر .

يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً (١) أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحناً يستغنى به عن المضغ ، واعتبر ذلك بان عجم العنب (٢) وغيره ، يخرج من أجواف الانس صحيحاً ، ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر ، ثم جعل مما يبيض بيضاً ، ولا يلد ولادة ، لكيلا يثقل عن الطيران ، فانه لو كانت الفراخ في جوفه تمكث حتى تستحكم ، لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران ، فجعل كل شيء من خلقه مشاكلاً للامر الذي قدر أن يكون عليه . ثم صار الطائر السائح في هذا الجو يقعد على بيضه فيحضنه اسبوعاً وبعضها اسبوعين وبعضها ثلاثة أسابيع ، حتى يخرج الفرخ من البيضة ، ثم يقبل عليه فيزقه الريح لتتسع حوصلته للغذاء ، ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به . فمن كلفه ان يلقط الطعم والحب يستخرجه ، بعد أن يستقر في حوصلته ، ويغذو به فراخه . . ؟ ولأي معنى يحتمل هذه المشقة . وليس بذي روية ولا تفكر ، ولا يأمل في فراخه ما يؤمل الانسان في ولده من العز والرفد (٣) وبقاء الذكر . . ؟ فهذا من فعله يشهد انه معطوف على فراخه ، لعلة لا يعرفها ولا يفكر فيها ، وهي دوام النسل وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره .

﴿ الدجاجة وتهيجها لحضن البيض والتفريخ ﴾

انظر الى « الدجاجة » كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ ، وليس

---

(١) الغريض : كل أبيض طري .

(٢) عجم العنب : ما كان في جوف العنب من النوى الصغير .

(٣) الرفد ـ بالكسر ـ المعونة والعطاء والجمع أرفاد ورفود .

لها بيض مجتمع ولا وكر موطى ، بل تنبعث وتنتفخ وتقوى (١) وتمتنع من الطعم ، حتى يجمع لها البيض ، فتحضنه وتفرخ .. فلم كان ذلك منها إلا لأقامة النسل ؟ ومن أخذها باقامة النسل ولا روية لها ولا تفكير ، لولا انها مجبولة على ذلك ؟ ..

﴿ خلق البيضة والتدبير في ذلك ﴾

إعتبر بخلق البيضة ، وما فيهامن المحّ (٢) الاصفر الخاثر (٣) والماء الأبيض الرقيق ، فبعضه ينشو منه الفرخ ، وبعضه ليغتذي به ، إلى أن تنقاب عنه البيضة ، وما فى ذلك من التدبير ، فانه لو كان نشوء (٤) الفرخ في تلك القشرة المستحفظة (٥) التي لا مساغ لشيء اليها ، جعل معه فى جوفها من الغذاء ما يكتفي به الى وقت خروجه منها ، كمن يُحبس في حبس حصين لا يوصل إلى من فيه ، فيجعل معه من القوت ما يكتفي به الى وقت خروجه منه .

﴿ حوصلة الطائر ﴾

فكر يا مفضل فى حوصلة الطائر ، وما قدر له ، فان مسلك الطعم

---

(١) فى الاصل كتبت الالف مثاله ، وتقوى من القوى من القوى أي الجوع ، فكأن الدجاجة تبيت جائعة .. وفى نسخة تقوقى اي تصيح

(٢) المح - بالضم - صفرة البيض ، وفي بعض النسخ بالخاء المعجمة أي مخ .

(٣) خثر اللبن : ثخن واشتد فهو خاثر .

(٤) سقطت الهمزة من الأصل .

(٥) المستحفظة من استحفظه السر أو المال : سأله ان يحفظه .

إلى القانصة (١) ضيق ، لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلا قليلا ، فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية ، حتى تصل الاولى إلى القانصة ، لطال عليه ، ومتى كان يستوفى طعمه ؟ . فانما يختلسه اختلاساً ، لشدة الحذر ، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة «٢» المعلقة امامه ، ليوعى فيها ما ادرك من الطعم بسرعة ، ثم تنفذه إلى القانصة على مهل ، وفي الحوصلة ايضاً خلة اخرى ، فان من الطائر ما يحتاج الى أن يزق فراخه فيكون رده للطعم من قرب اسهل عليه

﴿ اختلاف ألوان الطير وعلة ذلك ﴾

قال المفضل فقلت : ان قوماً من المعطلة يزعمون ان اختلاف الألوان والاشكال في الطير انما يكون من قبـــل إمتزاج الاخلاط ، واختلاف مقاديرها المرج (٣) والأهمال .

قال : يا مفضل هذا الوشي الذي تراه فى الطواويس والدراج (٤) والتدارج على استواء ومقابلة ، كنحو ما يخط بالأقلام ، كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف ، ولو كان بالاهمال لعدم الاستواء ولكان مختلفاً .

﴿ ريش الطائر ووصفه ﴾

تأمل ريش الطير كيف هو . . ؟ فانك تراه منسوجا كنسج الثوب

---

(١) القانصة للطير كالمعدة للانسان جمعها قوانص .

(٢) المخلاة : ما يجعل فيه العلف ويعلق في عنق الدابة والجمع مخال

(٣) المرج ـ بالتحريك ـ الاضطراب واللبس والفساد والاختلاط وفي بعض النسخ بالزاء المعجمة . . والاول اظهر وأجلى للمعنى المقصود

(٤) الدراج طائر تقدم ذكره .

من سلوك (١) دقاق ، قد أُلّف بعضه إلى بعض ، كتأليف الخيط الى الخيط والشعرة إلي الشعرة ، ثم ترى ذلك النسج اذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشق لتداخله الريح ، فيقل الطائر اذا طار ، وترى في وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته ، وهو القصبة التي في وسط الريشة ، وهو مع ذلك أجوف ، ليخف على الطائر ولا يعوقه عن الطيران .

﴿ الطائر الطويل الساقين والتدبير في ذلك ﴾

هل رأيت يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين (٢) وعرفت ماله من المنفعة فى طول ساقيه ، فانه أكثر ذلك فى ضحضاح (٣) من الماء ، فتراه بساقين طويلين ، كانه ربيئة (٤) فوق مَرقَب (٥) وهو يتأمل ما يدب في الماء ، فاذا رأي شيئاً مما يتقوت به ، خطاخطوات رقيقاً حتى يتناوله ، ولو كان قصير الساقين وكان يخطو نحو الصيد ليأخذه ، يصيب بطنه الماء فيثور ويذعر منه ، فيتفرق عنه ، فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه .

---

(١) السلوك جمع سلك وهو الخيط ينظم فيه الخرز ونحوه .

(٢) ينطبق الوصف الذى ذكره الامام الصادق للطائر الطويل الساقين على بعض الطيور المائية كالنحام والانيس .

(٣) الضحضاح : الماء اليسير او القريب القعر .

(٤) الربيئة : العين التي ترقب ، أو الطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون الا على جبل .

(٥) المرقب : الموضع المرتفع يعلوه الرقيب جمعه مراقب .

تأمل ضروب التدبير في خلق الطائر ، فانك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق ، وذلك ليتمكن من تناول طعمه من الارض ولو كان طويل الساقين قصير العنق ، لما استطاع أن يتناول شيئاً من الارض ، وربما أعين مع طول العنق بطول المناقير ليزداد الأمر عليه سهولة وامكانا أفلا ترى انك لاتفتش شيئاً من الخلقة إلا وجدته على غاية الصواب والحكمة

(العصافير وطلبها للاكل)

انظر إلى العصافير ، كيف تطلب أكلها بالنهار فهي لاتفقده ولا تجده مجموعاً معداً ، بل تناله بالحركة والطلب ، وكذلك الخلق كله فسبحان من قدر الرزق كيف فرقه . فلم يجعل مما لا يقدر عليه ، اذ جعل بالخلق حاجة اليه ، ولم يجعل مبذولاً ينال بالهوينا (١) اذ كان لا صلاح فى ذلك فانه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم تنقلب عليه ، ولا تنقلع عنه حتى تبشم (٢) فتهلك . وكان الناس أيضاً يصيرون بالفراغ الى غاية الأشر والبطر ، حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش .

(معاش البوم والهام والخفاش)

أعلمت ما طعم هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا بالليل ، كمثل البوم والهام (٣) والخفاش ؟ . .

---

(١) الهوينا : التؤدة والرفق ، وهي تصغير الهونى ، والهونى تأنيث الأهون . . وقد كتبت الهوينا فى الاصل هكذا : الهوينى .

(٢) تبشم أي تتخم من الطعام .

(٣) الهام جمع هامة : نوع من البوم الصغير تألف القبور والاماكن الخربة ، وتنظر من كل مكان أينما درت ادارت رأسها ، وتسمى أيضا الصدى

قلت : لا يا مولاي .

قال : إن معاشها من ضروب تنتشر في الجو من البعوض والفراش وأشباه الجراد واليعاسيب (١) . وذلك ان هذه الضروب مبثوثة فى الجو لا يخلو منها موضع . . واعتبر ذلك بانك اذا وضعت سراجاً بالليل فى سطح أو عرصة دار ، اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير . . فمن أين يأتي ذلك كله ، إلا من القرب ؟ فان قال قائل : أنه يأتي من الصحاري والبراري ، قيل له : كيف يوافي تلك الساعة من موضع بعيد ؛ وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً فى دار محفوفة بالدور فيقصد اليه ، مع ان هذه عياناً تتهافت على السراج من قرب ، فيدل ذلك على انها منتشرة في كل موضع من الجو . فهذه الأصناف من الطير تلتمسها اذا خرجت فتتقوت بها .

فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا تخرج إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة فى الجو ، واعرف ذلك المعنى في خلق هذه الضروب المنتشرة ، التي عسى ان يظن ظان انها فضل لا معنى له . .

﴿ خلقة الخفاش ﴾

خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع ؛ هوالى ذوات الأربع أقرب ، وذلك انه ذو أذنين ناشزتين (٢) واسنان ووبر وهو يلد ولاداً ويرضع ويبول ، ويمشي اذا مشى على اربع ، وكل هـذا

(١) اليعاسيب جمع يعسوب وهو ذكر النحل وأميرها .

(٢) الناشز : ما كان ناتئا مرتفعا عن مكانه . . وفى نسخة ناشر بالراء أى مبسوط .

خلاف صفة الطير ، ثم هو ايضاً مما يخرج بالليل ، ويتقوت بما يسرى (١) في الجو من الفراش وما اشبهه ، وقد قال قائلون انه لا طعم للخفاش وان غذاءه (٢) من النسيم وحده ، وذلك يفسد ويبطل من جهتين : أحدهما خروج الثفل (٣) والبول منه ، فان هذا لا يكون من غير طعم ، والاخرى انه ذو أسنان ، ولو كان لا يطعم شيئاً لم يكن للاسنان فيه معنى ، وليس فى الخلقة شيء لا معنى له ، وأما المآرب فيه فمعروفة ، حتى ان زبله يدخل فى بعض الأعمال ، ومن أعظم الارب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه ، وتصرفها فيما شاء كيف شاء لضرب من المصلحة .

﴿ حيلة الطائر ابو تمرة بالحسكة ومنفعتها ﴾

فاما الطائر الصغير الذي يقال له (ابن تُمَّرة) (٤) فقد عشش فى بعض الأوقات فى بعض الشجر ، فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاغرة فاها ، تبغيه لتبتلعه ، فبينما هو يتقلب ويضطرب في طلب حيلة منها إذ وجد حسكة ، فحملها فالقاها في فم الحية فلم تزل الحية تلتوي وتتقلب حتى ماتت . أفرأيت لو لم اخبرك بذلك ، كان يخطر ببالك او ببال غيرك انه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة ، أو يكون من طائر صغير او كبير

---

(١) يسري : يسير فى الليل .

(٢) سقطت الهمزة في الطبعة الاولى .

(٣) الثفل ـ بالضم ـ الكدرة المستقرة في اسفل الشيء .

(٤) في الاصل المطبوع أبو تمرة وهو غير صحيح ، وفي نسخة البحار : ابن تمرة . وتمرة اوابن تمرة طائر اصغر من العصفور .

مثل هذه الحيلة .. اعتبر بهذا وكثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف إلا بحادث يحدث أو خبر يسمع به .

﴿ النحل : عسله وبيوته ﴾

انظر إلى النحل واحتشاده فى صنعة العسل ، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى فى ذلك من دقائق الفطنة ، فانك اذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً ، واذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس ، واذا رجعت الى الفاعل الفيته غبياً جاهلا بنفسه (١) فضلا عما سوى ذلك ، ففي هذا أوضح الدلالة على ان الصواب والحكمة فى هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها ، وسخره فيها لمصلحة الناس .

﴿ الجراد وبلاؤه ﴾

انظر الى هذا الجراد ما أضعفه وأقواه ! . فانك اذا تأملت خلقه رأيته كأضعف الأشياء وان دلفت (٢) عساكره نحو بلد من البلدان لم يستطع أحد أن يحميه منه . ألا ترى ان ملكا من ملوك الأرض لو جمع خيله ورَجله (٣) ليحمي بلاده من الجراد لم يقدر على ذلك . أفليس من الدلائل

(١) أي ليس له عقل يتصرف في سائر الاشياء على نحو تصرفه فى ذلك الأمر المخصوص ، فظهر ان خصوص هذا الامر إلهام من مدبر حكيم او خلقة وطبيعة جبله عليها فى شأن مصلحته الخاصة ؛ مع كون هذا الحيوان غافلا عن المصلحة أيضا ، ولعل هذا يؤيد ما يقال ان الحيوانات العجم غير مدركة للكليات . « من تعليقات البحار »

(٢) دلف دلفاً ودلفانا : مشى كالمقيد وقارب الخطو في مشيه .

(٣) الرجل ـ بالفتح ـ جمع راجل وهو من يمشي على رجليه لا راكبا

على قدرة الخالق أن يبعث أضعف خلقه إلى أقوى خلقه ، فلا يستطيع دفعه

﴿ كثرة الجراد ﴾

انظر اليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل ، فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر ، حتى يستر نور الشمس بكثرته ، فلو كان هذا مما يصنع بالأيدي ، متى كان تجتمع منه هذه الكثرة ؟ وفى كم سنة كان يرتفع ؟ فاستدل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء ، ولا يكثر عليها

﴿ وصف السمك ﴾

تأمل خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه ، فانه خُلق غير ذي قوائم ، لأنه لا يحتاج إلى المشى ، اذ كان مسكنه الماء وخُلق غير ذي رئة ، لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس فى اللجة ، وجُعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها فى جانبيه ، كما يضرب الملاح بالمجاديف من جانبي السفينة ، وكسا (١) جسمه قشوراً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن (٢) لتقيه من الآفات ، فأعين بفضل حس في الشم ، لأن بصره ضعيف ، والماء يحجبه ، فصار يشم الطعم من البعد البعيد ، فينتجعه (٣) فيتبعه ، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه ؟ واعلم ان من فيه إلى صماخه (٤) منافذ ، فهو يعبّ الماء بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح

---

(١) في الاصل كتبت الالف المقصورة .

(٢) الجواشن جمع جوشن وهو الدرع أو الصدر .

(٣) ينتجع : يطلب الكلاء في موضعه .

(٤) الصماخ ـ بالكسر ـ خرق الاذن الباطن الماضي الى الرأس ، والجمع صمخ واصمخة .

إلى ذلك ، كما يتروح غيره من الحيوان الى تنسم هذا النسيم .

﴿ كثرة نسل السمك وعلة ذلك ﴾

فـكر الآن في كثرة نسله وما خص به من ذلك ، فانك ترى فى جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة ، والعلة في ذلك أن يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوان ، فان اكثرها يأكل السمك ، حتى ان السباع أيضاً في حافات الآجام (١) عاكفة على الماء أيضاً كي ترصد السمك ، فاذا مر بها خطفته ، فلما كانت السباع تأكل السمك ، والطير يأكل السمك ، والناس يأكلون السمك ، والسمك يأكل السمك ، كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة .

﴿ سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين ﴾

فاذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق ، وقصر علم المخلوقين ، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء والاصداف والاصناف التي لا تحصى ، ولا تعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس باسباب تحدث ، مثل القرمز (٢) فانه لما عرف الناس صبغه ، بان كلبة تجول على شاطىء البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي يسمى الحلزون (٣) ، فاكلته فاختضب خطمها (٤) بدمه فنظر الناس الى حسنه

---

(١) الآجام جمع الجمع للأجمة : الشجر الكثير الملتف .

(٢) القرمز : صبغ احمر .

(٣) الحلزون : دويبة تكون في صدف وهي المعروفة بالبزاق .

(٤) الخطم مقدم انف الدابة وفمها .

فاتخذوه صبغاً (١) ، واشباه هذا مما يقف الناس عليه حالا بعد حال وزماناً بعد زمان (٢) .

قال المفضل : وحان وقت الزوال ، فقام مولاي عليه السلام إلى الصلاة وقال : بكر إلي غداً إنشاء الله تعالى . . فانصرفت وقد تضاعفت سروري بما عرفنيه ، مبتهجاً بما منحنيه ، حامداً لله على ما آتانيه ، فبت ليلتي مسروراً مبتهجاً .

---

(١) يظهر من كلام الامام عليه السلام اتحاد القرمز والحلزون ، ويحتمل أن يكون المراد ان من صبغ الحلزون تفطن الناس باعمال القرمز للصبغ ، لما فيهما من تشابه .

(٢) ليس العجب من خالق أمثال هذه الذرة والدودة وأصناف الأسماك الغريبة التي اختلفت اشكالها وتنوعت الحكمة فيها ، وليس العجيب أن يهتدي الى الحكمة في كل واحد من تلك المصنوعات بعد وجودها وتكوينها ، وانما العجب ممن ينكر فاطر السماوات والارض وما فيهن وما بينهن ، مع اتقان الصنعة واحكام الخلقة وبداعة التركيب ، ولو نظر الجاحد الى نفسه مع غريب الصنع وتمام الخلق ، لكان اكبر برهان على الوجود ووحدانية الوجود. « الامام الصادق للمظفر ج ١ ص ١٧٧ »

المجلس الثالث

فلما كان اليوم الثالث بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت فاذن لي بالجلوس فجلست ، فقال عليه السلام : —

ألحمد لله الذي اصطفانا ولم يصطف علينا ، اصطفانا بعلمه (١) ، وأيدنا بحلمه (٢) من شذّ عنا (٣) فالنار مأواه ، ومن تفيأ بظل دوحتنا فالجنة مثواه .. قد شرحت لك يا مفضل خلق الانسان ، وما دبر به ، وتنقله في أحواله ، وما فيه من الاعتبار ، وشرحت لك امر الحيوان .. وأنا ابتدىء الآن بذكر السماء والشمس والقمر والنجوم والفلك والليل والنهار والحر والبرد والرياح والجواهر الأربعة الأرض والماء والهواء والنار والمطر والصخر والجبال والطين والحجارة والنخل والشجر وما فى ذلك من الأدلة والعبر .

﴿ لون السماء وما فيه من صواب التدبير ﴾

فكر فى لون السماء وما فيه من صواب التدبير ، فان هذا اللون أشد الألوان موافقة وتقوية للبصر ، حتى ان من صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضر ببصره ادمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد

---

(١) اصطفانا اي اختارنا وفضلنا على الخلق ، بان اعطانا من علمه ما لم يعط أحداً .

(٢) ايدنا بحلمه أى قوانا على تبليغ الرسالة بما حلانا به من حلمه لنصبر على ما يلقانا من أذى الناس وتكذيبهم .

(٣) شذ عنا : ندر عنا وانفرد .

وقد وصف الحذاق منهم لمن كلّ بصره الاطلاع في إجانة (١) خضراء مملوءة ماءاً ، فانظر كيف جعل الله جل وتعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المتقلبة عليه ، فلا ينكأ فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذي أدركه الناس بالفكر والروية والتجارب ، يوجد مفروغاً منه فى الخلقة حكمة بالغة (٢) ليعتبر بها المعتبرون ، ويفكر فيها الملحدون ، قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣) .

﴿ طلوع الشمس وغروبها والمنافع في ذلك ﴾

فكر يا مفضل فى طلوع الشمس وغروبها ، لاقامة دولتي النهار والليل ، فلو لا طلوعها لبطل أمر العالم كله ، فلم يكن الناس يسعون في معائشهم ، ويتصرفون في امورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ، ولم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه . والارب في طلوعها ظاهر مستغنى بظهوره عن الاطناب في ذكره ، والزيادة في شرحه . . بل تأمل المنفعة فى غروبها ، فلو لا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون ابدانهم ، وجموم حواسهم (٤) وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام ، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ، ومطاولته على ما يعظم نكايته في ابدانهم ، فان كثيراً

---

(١) الاجانة ـ بكسر فتشديد ـ إناء تغسل فيه الثياب والجمع أجاجين

(٢) خبر مبتدأ محذوف أو بالنصب على الحالية او لكونه مفعولا لأجله

(٣) يؤفكون : يكذبون .

(٤) الجموم مصدر جم تقول جم القوم : استراحوا و كثروا .

من الناس لو لا جثوم (١) هذا الليل بظلمته عليهم ، لم يكن لهم هدوء ولا قرار ، حرصاً على الكسب والجمع والادخار ، ثم كانت الأرض تستحمى بدوام الشمس بضيائها ، ويحمى كل ما عليها من حيوان ونبات ، فقدرها الله بحكمته وتدبيره ، تطلع وقتا وتغرب وقتاً ، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا ، فصار النور والظلمة مع تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

﴿ التدبير والمصلحة فى الفصول الأربعة من السنة ﴾

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة (٢) من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة ، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات ، فيتولد فيهما مواد الثمار . ويتكثف (٣) الهواء فينشأ منه السحاب والمطر ، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى ، وفي الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء ، فيطلع النبات ، وتنور (٤) الأشجار ويهيج الحيوان للسفاد ، وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار ، وتتحلل فضول الأبدان ، ويجف وجه الأرض ، فتهيأ للبناء والأعمال ، وفي الخريف

---

(١) الجثوم مصدر من قولهم جثم الليل .

(٢) يريد بذلك الامام عليه السلام الفصول الاربعة .

(٣) يتكثف الهواء أي يغلظ ويكثر .

(٤) تنور الاشجار أي تخرج نورها ـ بفتح فسكون ـ أي زهرها أو الابيض منه .

يصفو الهواء ، وترتفع الأمراض ، وتصح الأبدان ، ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله ، ويطيب الهواء فيه الى مصالح اخرى لو تقصيت لذكرها لطال فيها الكلام .

﴿ معرفة الأزمنة والفصول الأربعة عن طريق حركة الشمس ﴾

فكر الآن فى تنقل الشمس فى البروج الاثنى عشر (١) لاقامة دور السنة وما فى ذلك من التدبير . فهو الدور الذي تصح به الأزمنة الأربعه من السنة « الشتاء والربيع والصيف والخريف » تستوفيها على التمام ، وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار ، وتنتهي الى غاياتهم ثم تعود فيستأنف النشو والنمو . . ألا ترى ان السنة مقدار مسير الشمس من الحمل الى الحمل ، فبالسنة واخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم ، إلى كل وقت وعصر من غابر الايام ، وبها يحسب الناس الاعمار والاوقات الموقتة للديون والاجارات والمعاملات ، وغير ذلك من امورهم ، وبمسير (٢) الشمس تكمل السنة ، ويقوم حساب الزمان على الصحة .

انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون ؟ فانها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى

---

(١) بروج السماء الاثنى عشر هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت .

(٢) فى نسخة البحار « ميسر » بتقديم الياء على السين ، وليس للكلمة هنا معنى يوافق المراد .

كثير من الجهات ، لان الجبال والجدران كانت تحجبها عنها ، فجعلت تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة ، حتى تنتهى إلى المغرب ، فتشرق على ما استتر عنها فى أول النهار ، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها ، والارب التي قدرت له . ولو تخلفت مقدار عام او بعض عام كيف كان يكون حالهم ؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء ؟ أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الامور الجليلة التي لم يكن عندهم فيها حيلة ، فصارت تجري على مجاريها لا تفتل (١) ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه .

﴿ الاستدلال بالقمر فى معرفة الشهور ﴾

استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة فى معرفة الشهور ، ولا يقوم عليه حساب السنة ، لان دوره لا يستوفى الازمنة الاربعة ونشو الثمار وتصرمها ، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها ، وصار الشهر من شهور القمر ينتقل ، فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف .

﴿ ضوء القمر وما فيه من المنافع ﴾

فكر في انارته في ظلمة الليل والارب فى ذلك فانه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى ان يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها ، فلا يمكن فيه شيء من العمل ، لانه ربما

(١) لا تفتل اي لا تنصرف ولا تزول .

احتاج الناس إلى العمل بالايل ، لضيق الوقت عليهم في بعض الاعمال في النهار ، ولشدة الحر وافراطه ، فيعمل فى ضوء القمر اعمالا شتى ، كحرث الارض ، وضرب اللبن ، وقطع الخشب ، وما أشبه ذلك ، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معائشهم اذا احتاجوا الى ذلك ، وانسا للسائرين وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ، ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها ، لكيلا ينبسط الناس فى العمل انبساطهم بالنهار ، ويمتنعوا من الهدوء والقرار ، فيهلكهم ذلك ، وفى تصرف القمر خاصة في مهله (١) ومحاقه (٢) وزيادته ونقصانه وكسوفه ، من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه المصرف له هذا التصريف اصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون .

﴿ النجوم واختلاف مسيرها والسبب في ان بعضها راتبة والاخرى متنقلة ﴾

فكر يا مفضل فى النجوم واختلاف مسيرها ، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك (٣) ولا تسير إلا مجتمعة ، وبعضها مطلقة تنتقل فى البروج وتفترق في مسيرها . فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين ، أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب ، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق كالنملة التي تدور على الرحى ، فالرحى تدور ذات اليمين ، والنملة تدور ذات الشمال والنملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفين : احداهما بنفسها فتتوجه امامها ،

(١) مهله : أي ظهوره .

(٢) المحاق : ـ بكسر الاول او ضمه او فتحه ـ هو آخر الشهر القمري وقيل ثلاث ليال من آخره .

(٣) لعل المراد انه ليس لها حركة بينة ظاهرة كما في النجوم السيارة

والاخرى مستكرهة مع الرحى تجذبها الى خلفها . . فاسأل الزاعمين ان النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال ، من غير عمد ولا صانع لها ما منعها أن تكون كلها راتبة (١) او تكون كلها منتقلة ، فان الاهمال معنى واحد (٢) فكيف صار يأتي بحركتين مختلفين على وزن وتقدير ؟ ففي هذا بيان أن مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وحكمة وتقدير ، وليس باهمال كما يزعم المعطلة ، فان قال قائل : ولم صار بعض النجوم راتبا وبعضها منتقلا ؟ قلنا : انها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي يستدل بها من تنقل المنتقلة ، ومسيرها في كل برج من البروج ، كما يستدل بها على أشياء مما يحدث في العالم ، بتنقل الشمس والنجوم في منازلها ، ولو كانت كلها منتقلة ، لم يكن لمسيرها منازل تعرف ، ولا رسم يوقف عليه ، لأنه انما يوقف عليه بمسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الراتبة (٣) كما يستدل

---

(١) راتبة أي ثابتة غير متحركة .

(٢) يحتمل أن يكون المراد ان الطبيعة أو الدهر - الذين يجعلونها أصحاب الاهمال مؤثرين - كل منهما أمر واحد غير ذي شعور وإرادة ، ولا يمكن صدور الامرين المختلفين عن مثل ذلك . . أو المراد أن العقل يحكم بان مثل هذين الامرين المتسقين الجاريين على قانون الحكمة لا يكون إلا من حكيم راعى فيهما دقائق الحكم . . أو المراد ان الاهمال أي عدم الحاجة الى العلة ، وترجح الامر الممكن من غير مرجح كما تزعمون أمر واحد حاصل فيهما ، فلم صارت احداهما راتبة والاخرى منتقلة ؟ ولم لم ينعكس الامر . . ولعل المعنى الاول الذي ذكرناه أفضل وأقرب .

« من تعليقات البحار »

(٣) نرجح ان الامام عليه السلام راعى فى انتقال البروج محاذاة

على سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها أو لو كان تنقلها بحال واحدة لاختلط نظامها ، وبطلت المآرب فيها ، ولساغ القائل أن يقول ان كينونتها على حال واحدة توجب عليها الاهمال من الجهة التي وصفنا ، ففي اختلاف سيرها وتصرفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة ، أبين دليل على العمد والتدبير فيها .

﴿ فوائد بعض النجوم ﴾

فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا (١) والجوزاء (٢) والشعريين (٣) وسهيل (٤) ، فانها لو كانت باسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس ، ويهتدون بها لبعض امورهم ، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور (٥) والجوزاء اذا طلعت ، واحتجابها اذا احتجبت ، فصار ظهور كل واحد واحتجابه في وقت غير الوقت الآخر ، لينتفع الناس بما يدل

ـ نفس الاشكال . . وان امكن أن يكون المراد بيان حكمة بقاء الحركة ليصلح كون تلك الاشكال علامات للبروج ، ولو بقربها منه . . لكن هذا المعنى بعيد . « من تعليقات البحار »

(١) الثريا : مجموع كواكب في عنق الثور .

(٢) الجوزاء : برج في السماء ، سميت بذلك لاعتراضها في جوز السماء أي وسطه .

(٣) الشعريان : تثنية الشعرى ـ بالكسر ـ وهو الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر .

(٤) سهيل ـ بالتصغير ـ نجم بهي طلوعه على بلاد العرب في اواخر القيظ . (٥) الثور : برج في السماء من البروج الاثنى عشر .

عليه كل واحد منها على حدته ، وما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً إلا لضرب من المصلحة ، وكذلك جعلت بنات نعش (١) ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة ، فانها بمنزلة الاعلام التي يهتدى بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة ، وكذلك انها لا تغيب ولا تتوارى فهم ينظرون اليها متى أرادوا أن يهتدوا بها الى حيث شاؤا ، وصار الأمران جميعاً على اختلافهما موجهين نحو الارب والمصلحة ، وفيهما مآرب اخرى علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الاعمال ، كالزراعة والغراس والسفر في البر والبحر ، وأشياء مما يحدث في الأزمنة من الأمطار والرياح والحر والبرد ، وبها يهتدى السائرون في ظلمة الليل ، لقطع القفار الموحشة واللجج (٢) الهائلة ، مع ما في ترددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من العبر ، فانها تسير أسرع السير وأحثه (٣) . أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منا ، حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه ، ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق اذا توالت واضطرمت في الجو ؟ وكذلك ايضاً لو ان اناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت أبصارهم حتى يخروا لوجوههم .

---

(١) بنات نعش الكبرى : سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي ، وبقربها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى ، والنجمة التي رسمت كبيرة هي النجمة القطبية التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي .

(٢) اللجج جمع لجة : معظم الماء .

(٣) أسرع السير وأحثه كلاهما بمعنى واحد .

فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد ، لكيلا تضر في الأبصار ، وتنكأ فيها ، وباسرع السرعة . لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها ، وجعل فيها جزءاً يسيراً من الضوء ، ليسد مسد الاضواء إذا لم يكن قمر ، ويمكن فيه الحركة اذا حدثت ضرورة ، كما قد يحدث الحادث على المرء ، فيحتاج إلى التجافي (١) في جوف الليل ، فان لم يكن شيء من الضوء يهتدى به لم يستطع ان يبرح مكانه .

فتأمل اللطف والحكمة في هذا التقدير ، حين جعل للظلمة دولة ومده لحاجة اليها ، وجعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا .

﴿ الشمس والقمر والنجوم والبروج تدل على الخالق ﴾

فكر في هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على العالم هذا الدوران الدائم ، بهذا التقدير والوزن لما في اختلاف الليل والنهار وهذه الازمان الاربعة المتوالية ، من التنبيه على الارض وما عليها من اصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة ، كالذي بينت وشخصت لك آنفاً وهل يخفى على ذي لب ان هذا تقدير مقدر وصواب وحكمة من مقدر حكيم ، فان قال قائل : ان هذا شيء اتفق أن يكون هكذا ؟ فما منعه أن يقول مثل هذا في دولاب (٢) يراه يدور ويسقي حديقة فيها شجر ونبات فيرى كل شيء من آلاته مقدراً بعضه يلقي بعضاً على ما فيه صلاح تلك

---

(١) التجافي من تجافى أي لم يلزم مكانه .

(٢) الدولاب ـ بالفتح ـ كل آلة تدور على محور والجمع دواليب ، والكلمة من الدخيل .

الحديقة ومافيها . وبم كان يثبت هذا القول لو قاله وما ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه ؟ أفينكر ان يقول في دولاب خشب مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الارض ، انه كان بلا صانع ومقدر ، ويقدر أن يقول فى هذا الدولاب الاعظم ، المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر ، لصلاح جميع الارض وماعليها انه شيء اتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك ؛ كما تعتل الآلات التي تتخذ للصناعات وغيرها ، أي شيء كان عند الناس من الحيلة في اصلاحه .

﴿ مقادير الليل والنهار ﴾

فكر يا مفضل فى مقادير النهار والليل ، كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق ، فصار منتهى كل واحد منهما ـ اذا امتد ـ الى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك (١) أفرأيت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة أو مائتي ساعة ؟ ألم يكن في ذلك بوار كل ما في الارض من حيوان ونبات ؟ أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة ، ولا البهائم كانت تمسك عن الرعى لو دام لها ضوء النهار ، ولا الانسان كان يفتر عن العمل والحركة ، وكان ذلك ينهكها اجمع ، ويؤديها الى التلف ، وأما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يجف ويحترق

(١) يتساوى الليل والنهار في جميع أنحاء العالم مرتين فى الخريف يوم ٢٣ أيلول ومرة ثانية في الربيع يوم ٢٢ مارت . ويطول الليل فى الشتاء بتاريخ ٢١ كانون الاول حتى يبلغ طوله فى العراق أكثر من اربعة عشر ساعة ، ثم يطول النهار فى الصيف بتاريخ ٢١ حزيران ويزيد طوله في العراق على اربعة عشر ساعة .

كذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف فى طلب المعاش ، حتى تموت جوعاً ، وتخمد الحرارة الطبيعية عن النبات ، حتى يعفن ويفسد ، كالذي تراه يحدث على النبات اذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس .

﴿ الحر والبرد وفوائدهما ﴾

اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران (١) العالم ، ويتصرفان هذا التصرف فى الزيادة والنقصان والاعتدال ، لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيهما من المصالح ، ثم هما بعد دباغ الابدان التي عليهما بقاؤها وفيهما صلاحها ، فانه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت واخوت (٢) وانتكثت (٣) .

فكر في دخول احدهما (٤) على الآخر بهذا التدريج والترسل ، فانك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء ، والآخر يزيد مثل ذلك ، حتى ينتهى كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان ولو كان دخول احدهما على الآخر مفاجأة ، لأضر ذلك بالابدان واسقمها ، كما ان احدكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة ، لضره ذلك واسقم بدنه فلم يجعل الله عزوجل هذا الترسل في الحر والبرد ، إلا للسلامة من ضرر المفاجأة ولم

---

(١) يتعاوران : يتداولان .
(٢) أخوت : جاعت .
(٣) انتكثت : انتقضت وانتبذت .
(٤) أحدهما أى الحر والبرد .

جرى الامر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا التدبير في ذلك ؟ فان زعم زاعم : ان هذا الترسل فى دخول الحر والبرد انما يكون لابطاء مسير الشمس فى ارتفاعها وانحطاطها ، سئل عن العلة في ابطاء مسير الشمس فى ارتفاعها وانحطاطهـا ، فان اعتل في الابطاء ببعد ما بين المشرقين (١) سئل عن العلة في ذلك ، فلا تزال هذه المسألة ترقى معه الى حيث رقى من هذا القول ، حتى استقر على العمد والتدبير . . لولا الحر لما كانت الثمار الجاسية (٢) المرة تنضج فتلين وتعذب ، حتى يتفكه بها رطبة ويابسة . . ولو لا البرد لما كان الزرع يفرخ (٣) هكذا ، ويريع الريع (٤) الكثير الذي يتسع للقوت ، ومايردفى الارض للبذر . . أفلاترى ما في الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة ، وكلاهما مع غنائه والمنفعه فيه يؤلم الابدان ويمضها (٥) وفي ذلك عبرة لمن فكر ، ودلالة على انه من تدبير الحكيم ، في مصلحة العالم وما فيه .

﴿ الريح وما فيها ﴾

وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها ، ألست ترى ركودها اذا

(١) المراد بالمشرقين هنا هما المشرق والمغرب من باب تغليب أحدهما على الآخر .

(٢) الجاسية : أي الصلبة .

(٣) يفرخ الزرع : أى تنبت افراخه وهي ما يخرج في أصوله من صغاره .

(٤) يريع الريع أي تنمو الغلة وتزداد .

(٥) يمضها : يوجعها ويؤلمها .

ركدت كيف يحدث الكرب ، الذي يكاد أن يأتي على النفوس ، ويمرض الاصحاء ، وينهك المرضى ، ويفسد الثمار ، ويعفن البقول ، ويعقب الوباء فى الابدان ، والآفة في الغلات - ففي هذا بيان : ان هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق .

﴿ الهواء والاصوات ﴾

وانبئك عن الهواء بخلة اخرى ، فان الصوت أثر يؤثره اصطكاك الاجسام فى الهواء ، والهواء يؤديه الى المسامع (١) والناس يتكلمون فى حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم ، فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء ، كما يبقى الكتاب في القرطاس ، لامتلأ العالم منه ، فكان يكربهم ويفدحهم ، وكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به ، إلى أكثر مما يحتاج اليه في تجديد القراطيس ، لان ما يلفظ من الكلام اكثر مما يكتب فجعل الخلاق الحكيم جل قدسه هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم ، ثم يمحى فيعود جديداً نقياً ، ويحمل ما حمل ابدا بلا انقطاع ، وحسبك بهذا النسيم المسمى هواء عبرة ، وما فيه من المصالح ، فانه حياة هذه الابدان ، والممسك لها من داخل ، بما يستنشق

---

(١) تعريف الامام عليه السلام للصوت لا يتعارض مع التعريف الذي اصطلحه العلم الحديث له ، فالصوت في النظر العلمي هو حركة اهتزازية تحدث في الهواء من جسم اهتز فيه ، والصوت إذ يحدث الرجات في الهواء تنتقل هذه الرجات الى طبلة الاذن ليحملها عصب السمع الى المخ ومما يدل على ان الصوت هو رجات تحدث في الهواء انه لو احدث صوت داخل ناقوس مفرغ الهواء لم يسمع له حس أبداً .

منه من خارج بما يباشر من روحه . وفيه تطرد هذه الاصوات فيؤدي البعد البعيد وهو الحامل لهذه الارواح ينقلها من موضع الى موضع . . . ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح ، فكذلك الصوت ، وهو القابل لهذا الحر والبرد ، اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه ، ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروح عن الاجسام وتزجى السحاب من موضع إلى موضع ، ليعم نفعه ، حتى يستكثف فيمطر ، وتفضه حتى يستخف فيتفشى وتلقح الشجر ، وتسير السفن ، وترخى الاطعمة ، وتبرد الماء ، وتشب النار ، وتجفف الاشياء الندية ، وبالجملة انها تحيي كل ما في الارض . . . فلو لا الريح لذوى النبات ، ولمات الحيوان ، وحمت الاشياء وفسدت .

﴿ هيئة الأرض ﴾

فكر يامفضل فيما خلق الله عز وجل عليه هذه الجواهر الأربعة (١) ليتسع ما يحتاج اليه منها . . فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها ، فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اخشابهم واحطابهم والعقاقير العظيمة والمعادن الجسيم غناؤها . ولعل من

(١) المراد بالجواهر الأربعة هي التراب والماء والهواء والنار ، والمعروف ان المفكر اليوناني إمبذوقليس (٤٩٥ – ٤٣٥) ق م قد رد الكون الى تلك العناصر أو الجواهر الأربعة التي هي في رأيه لا تفتأ في اتصال وانفصال يكونان سبباً في نشأة الأشياء واختلاف صفاتها تبعا للاختلاف في نسبة المزج بين العناصر . . ولا يخفى ان ما ذهب اليه إمبذوقليس هذا في التفريق بين صفات العناصر وصفات الأشياء التي تركبت منها تباين ظاهر وتناقض واضح .

ينكر هذه الفلوات (١) الخاوية والقفار الموحشة. فيقول: ما المنفعة فيها؟ فهي مأوى هذه الوحوش ومحالها ومراعيها، ثم فيها بعد تنفس ومضطرب للناس اذا احتاجوا الى الاستبدال باوطانهم، فكم بيداء وكم فدفد (٢) حالت قصوراً وجناناً، بانتقال الناس اليها وحلولهم فيها، ولو لا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن هو فى حصار ضيق لا يجد مندوحة عن وطنه اذا أحزنه أمر يضطره الى الانتقال عنه.

ثم فكر في خلق هذه الارض على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكنة، فتكون موطناً مستقراً للاشياء، فيتمكن الناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس عليها لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والاتقان لأعمالهم فانها لو كانت رجراجة منكفئة، لم يكونوا يستطيعون ان يتقنوا البناء والنجارة والصناعة وما أشبه ذلك، بل كانوا لا يتهنون بالعيش والارض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل (٣) - على قلة مكثها - حتى يصيروا الى ترك منازلهم، والهرب عنها. فان قال قائل:

(١) الفلوات جمع فلات وهي الصحراء الواسعة.

(٢) الفدفد: الفلاة والجمع فدافد.

(٣) الزلازل جمع زلزلة وهي من آثار التفاعلات الارضية الحاصلة في بطن الأرض، وسببها هو سبب تكون البراكين، وذلك ان مياه البحر تتسرب من خلال طبقات الارض، حتى تصل الى عمق تكون فيه درجة الحرارة شدة، فاذا تبخر الماء بفعل الحرارة طلب له منفذاً، ولا يزال يتراكم على بعضه الى أن يهدم ما يصادفه أمامه من الحواجز، فترتج له القشرة الأرضية بحسب قوة البخار واندفاعه وهذا ما يسمى بالزلزلة.

فلم صارت هذه الأرض تزلزل ؟ قيل له أن الزلزلة وما أشبهاموعظة وترهيب يرهب بها الناس ليرعووا ، وينزعوا عن المعاصي ، وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في ابدانهم وأموالهم ، يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم ، ويدخر لهم ان صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة مالا يعد له شيء من أمور الدنيا ، وربما عجل ذلك في الدنيا اذا كان ذلك في الدنيا صلاحاً للعامة والخاصة . . ثم ان الارض في طباعها الذي طبعها الله عليه باردة يابسة ، وكذلك الحجارة ، وانما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس في الحجارة ، أفرأيت لو ان اليبس افرط على الارض قليلا ، حتى تكون حجراً صلداً ، أكانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوان ، وكان يمكن بها حرث أو بناء ؟ ؟ أفلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعتماد .

﴿ فوائد الماء والسبب في كثرته ﴾

ومن تدبير الحكيم جل وعلا في خلقة الارض ان مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب (١) فلم جعل الله عزوجل كذلك إلا لتنحدر المياه

---

(١) اي بعد ما خرجت الارض من الكروية الحقيقية ، صار ما يلي الشمال منها في أكثر المعمورة ارفع مما يلي الجنوب ، ولذا ترى أكثر الأنهار كدجلة والفرات وغيرها تجري من الشمال الى الجنوب ، لأن الماء الساكن في جوف الارض تابع للارض في ارتفاعه وانخفاضه ، ولذا أيضاً صارت العيون المنفجرة تجري هكذا من الشمال الى الجنوب . . ومن أجل ذلك حكموا بفوقية الشمال على الجنوب . ويظهر لك مما بينه الامام عليه السلام انه لا ينافي كروية الارض . « من تعليقات البحار »

على وجه الارض فتسقيها وترويها ، ثم تفيض آخر ذلك الى البحر ، فكما يرفع أحد جانبي السطح ، ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه كذلك جعل مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب لهذه العلة بعينها ، ولولا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الأرض ، فكان يمنع الناس من اعمالها ، ويقطع الطرق والمسالك ، ثم الماء لولا كثرته ، وتدفقه فى العيون والاودية والانهار ، لضاق عما يحتاج اليه الناس ، لشربهم وشرب أنعامهم ومواشيهم ، وسقي زروعهم وأشجارهم واصناف غلاتهم ، وشرب ما يرده من الوحوش والطير والسباع ، وتتقلب فيه الحيتان ودواب الماء ، وفيه منافع اخر أنت بها عارف ، وعن عظيم موقعها غافل فانه (١) سوّى الامر الجليل المعروف من عظيم غنائه فى احياء جميع ما على الارض من الحيوان والنبات يمزج الاشربة فتلذ وتطيب لشاربها ، وبه تنظف الابدان والامتعة من الدرن (٢) الذي يغشاها ، وبه يبل (٣) التراب فيصلح للاعمال وبه يكف عادية النار اذا اضطرمت ، وأشرف الناس على المكروه ، وبه يستحم المتعب الكال (٤) فيجد الراحة من أوصابه ، إلى أشباه هذا من المآرب التي تعرف عظم موقعها فى وقت الحاجة اليها ، فان شككت فى منفعة

(١) الضمير راجع إلى الماء وهو اسم ان ويمزج خبرها . . أي للماء سوى النفع الجليل المعروف وهو كونه سببا لحياة كل شيء منافع أخرى منها انه يمزج مع الاشربة .

(٢) الدرن – بفتحتين – هو الوسخ جمعه أدران .

(٣) بله الماء : نداه .

(٤) الكال اسم فاعل من كلّ : تعب واعيا .

هذا الماء الكثير المتراكم في البحار ، وقلت : ما الارب فيه ؟ فاعلم انه مكتنف ومضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك ودواب البحر ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر (٥) وأصناف شتى تستخرج من البحر ، وفي سواحله منابت العود اليلنجوج (٦) وضروب من الطيب والعقاقير ، ثم هو بعد مركب للناس ، ومحمل لهذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة ، كمثل ما يجلب من الصين الى العراق ، ومن العراق الى الصين (٧) فان هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وايدي اهلها ، لان أجر حملها يجاوز أثمانها ، فلايتعرض أحد لحملها وكان يجتمع في ذلك أمران : احدهما فقداشياء كثيرة تعظم الحاجة اليها والآخر أنقطاع معاش من يحملها ويتعيش بفضلها .

﴿ فوائد الهواء والسبب في كثرته ﴾

وهكذا الهواء لو لا كثرته وسعته لاختنق هذا الانام من الدخان والبخار الذي يتحير فيه ، ويعجز عما يحول الى السحاب والضباب أولاً أولاً . فقد تقدم من صفته ما فيه كفاية .

﴿ منافع النار وجعلها كالمخزونة في الاجسام ﴾

والنار أيضاً كذلك ، فانها لو كانت مبثوثة كالنسيم والماء كانت

---

(١) العنبر هو الطيب والزعفران ، أو حوت قد يبلغ طوله نحواً من ٦٠ قدما ضخم الرأس وله أسنان بخلاف البال والجمع عنابر .

(٢) اليلنجوج : العود الطيب الرائحة .

(٣) في نسخة البحار ومن العراق الى العراق . . وما ذكرناه أظهر

تحرق العالم وما فيه ، ولما لم يكن بد من ظهورها في الاحايين ، لغنائها في كثير من المصالح ، جعلت كالمخزونة في الاجسام ، فتلتمس عند الحاجة اليها ، وتمسك بالمادة والحطب ما احتيج الى بقائها لئلا تخبو فلا هي تمسك بالمادة والحطب ، فتعظم المؤونة فى ذلك ، ولا هي تظهر مبثوثة ، فتحرق كل ما هي فيه ، بل هي على تهيئة وتقدير ، إجتمع فيها الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها .

ثم فيها خلة اخرى وهي انها مما خُصّ بها الانسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة ، فانه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه ، فاما البهائم فلا تستعمل النار ، ولا تستمتع بها ، ولما قدر الله عز وجل أن يكون هذا هكذا ، خلق للانسان كفاً وأصابع مهيئة لقدح النار واستعمالها ، ولم يعط البهائم مثل ذلك ، لكنها أُعينت بالصبر على الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها فى فقد النار ما ينال الانسان عند فقدها

وانبئك من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم موقعها ، وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس ، فيقضون به حوائجهم ما شاؤا فى ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس تصرف أعمارهم بمنزلة من فى القبور ، فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ ، أو ينسج في ظلمة الليل ، وكيف كان حال من عرض له وجع فى وقت من أوقات الليل . فاحتاج الى أن يعالج ضمادا أو سَفوفا (١) او شيئاً يستشفى به . . فاما منافعها في نضج الأطعمة ودفاء

---

(١) السفوف ـ بالفتح ـ : ماتسفه من دواء ونحوه . وسف الدواء ونحوه : أخذه غير ملتوت .

الأبدان وتجفيف أشياء، وتحليل أشياء، وأشباه ذلك : فأكثر من أن نحصى وأظهر من أن تخفى .

﴿ الصحو والمطر وتعاقبهما على العالم وفوائد ذلك ﴾

فـكر يا مفضل فى الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان فى ذلك فساده . . ألا ترى ان الأمطار اذا توالت عفنت البقول والخضر، واسترخت أبدان الحيوان وحصر الهواء فاحدث ضروباً من الأمراض . وفسدت الطرق والمسالك وان الصحو اذا دام جفت الأرض، واحترق النبات، وغيض ماء العيون والأودية، فاضر ذلك بالناس، وغلب اليبس على الهواء فاحدث ضروباً اخرى من الأمراض . . فاذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب إعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الاخر، فصلحت الأشياء واستقامت . . فان قال قائل : ولم لا يكون فى شيء من ذلك مضرة البتة ؟ قيل له ليمض ذلك الانسان ويؤلمه بعض الألم، فيرعوي عن المعاصي ؛ فكما ان الانسان اذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية المرة البشعة ليقوم طباعه، ويصلح ما فسد منه، كذلك اذاطغى واشتد احتاج إلى مايعضه ويؤلمه، ليرعوى ويقصر عن مساويه، ويثبته على ما فيه حظه ورشده . . ولو ان ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطيراً (١) من ذهب وفضة، ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت، فاين هذا من مطرة رواء يعم به البلاد، ويزيد فى

(١) القناطير جمع قنطار وهو المال الكثير أو وزن اختلف مقدار موزونه مع الايام .

الغلات اكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها .. أفلا ترى المطرة الواحدة ما اكبر قدرها ، وأعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون ، وربما عاقت عن أحدهم حاجة لا قدر لها ، فيتذمر ويسخط ، ايثاراً للخسيس قدره على العظيم نفعه ، جميلاً محموداً لعاقبته وقلة معرفته (١) لعظيم الغناء والمنفعة فيها .

﴿ مصالح نزول المطر على الارض وأثر التدبير فيه ﴾

تأمل نزوله على الأرض والتدبير فى ذلك ، فانه جعل ينحدر عليها من علو ليغشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه ، ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ، ويقل ما يزرع في الارض .. ألا ترى ان الذي يزرع سيحاً (٢) أقل من ذلك ، فالأمطار هي التي تطبق الارض ، وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة . وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤنة سياق الماء من موضع إلى موضع ، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العز والقوة ، ويحرمه الضعفاء ، ثم انه حين قدر أن ينحدر على الارض إنحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ؛ ليغور فى قعر الارض فيرويها ، ولو كان يسكبه انسكاباً كان ينزل على وجه الارض فلا يغور فيها ، ثم كان يحطم الزروع القائمة اذا اندفق عليها ، فصار ينزل

---

(١) في الاصل المطبوع محمود العاقبة وقلة معرفة ، وما ذكرناه هو الأصح .

(٢) زراعة السيح هي الزراعة التي تحصل عن طريق الانهر والمياه الجارية

نزولا رقيقاً ، فينبت الحب المزروع ، ويحيي الارض والزرع القائم .

وفى نزوله أيضاً مصالح اخرى ، فانه يلين الابدان ، ويجلو كـدر الهواء ، فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ، ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى باليرقان (١) إلى أشباه هذا من المنافع ، فان قال قائل : أوليس قـد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم الكثير ، لشدة ما يقع منه ، أو برد (٢) يكون فيه تحطم الغلات ، وبخورة يحدثها في الهواء ، فيولد كثيراً من الامراض في الابدان والآفات في الغلات ؟ قيل : بلى قد يكون ذلك الفرط ، لما فيه من صلاح الانسان ، وكفه عن ركوب المعاصي والتمادى فيها ، فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه ، أرجح مما عسى ان يرزأ في ماله ! .

﴿ منافع الجبال ﴾

انظر يا مفضل الى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة ، التي يحسبها الغافلون : فضلا لا حاجة اليها ، والمنافع فيها كثيرة ، فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج ، فتبقى فى قِلالها (٣) لمن يحتاج اليه ، ويذوب ما ذاب منه ، فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام ، وينبت

---

(١) اليرقان ـ بفتحتين او فتح فسكون ـ آفة للزرع أو دود يسطو على الزرع .

(٢) البرد ـ بفتحتين ـ : ماء الغمام يتجمد فى الهواء البارد ويسقط على الارض حبوبا .

(٣) القلال ـ بالكسر ـ جمع قلة ـ بضم فتشديد ـ : أعلى الرأس والجبل وكل شيء .

فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل ، ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحوش من السباع العادية (١) ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الأعداء وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء (٢) ويوجد فيها معادن لضرب من الجواهر ، وفيها خلال اخر لا يعرفها إلا المقدر لها فى سابق علمه .

﴿ أنواع المعادن واستفادة الانسان منها ﴾

فكر يا مفضل في هذه المعادن وما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس (٣) والجبسين (٤) والزرنيج (٥) والمرتك (٦)

---

(١) العادية : المعتدية .

(٢) الارحاء جمع رحى وهي الطاحون .

(٣) الكلس - بالكسر - تقدم ذكره .

(٤) الجبسين كذا في النسخ ولم نجده فيما عندنا من كتب اللغة ، والظاهر انه الجبس وهو الجص الذي يبنى به وهو مركب من كبريتات الكالسيوم ويوجد فى الأراضي الثلا .

(٥) فى الاصل الزرانيخ والالف زائدة ولم ترد فى كلام العرب ، والزرنيخ عنصر معروف يوجد منفرداً وعلى حالة كبريتيور الزرنيخ وهو جسم صلب لونه سنجابي لماع متبلور يتطاير بالحرارة من غير أن يصهر ولا يذوب فى الماء ، واذا خلط الزنيخ مع الكلس حلق الشعر .

(٦) المرتك وتضاف اليه غالبا كلمة الذهبي وهو اكسيد الرصاص عبارة عن بلورات صغيرة مسحوقة يدخل في تركيب مرهم للبواسير .

والتوتيا (١) والزئبق (٢) والنحاس والرصاص والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزمرد (٣) وضروب الحجارة ، وكذلك مايخرج منها من القار والموميا والكبريت والنفط (٤) وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم فهل يخفى على ذي عقل ان هذه كلها ذخائر ذخرت للانسان في هـــذه الأرض ، ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة اليها ، ثم قصرت حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فانهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة سيظهر ، ويستفيض في العالم ، حتى تكثر الفضة والذهب ، ويسقطا عند الناس فلا تكون لهما قيمة ويبطل الانتفاع بهما في الشراء والبيع والمعاملات ، ولا كان يجبى السلطان الأموال ولا يدخرهما أحد للاعقاب ، وقد أعطى الناس - مع هذا - صنعة الشبه (٥) من النحاس ، والزجاج من الرمل والفضة من الرصاص ، والذهب من الفضة ، وأشباه ذلك مما لا مضرة فيه .

فانظر كيف اعطوا ارادتهم في ما لا ضرر فيـه ، ومنعوا ذلك فيما

---

(١) التوتيا هي اوكسيد الزنك غير النقي مخلوطا مع الزرنيخ لايستعمل في الطب .

(٢) في الاصل الزيبق وهو استعمال عامي . والزئبق سيال معدني لماع يتجمد على درجة ٤٠ تحت الصفر ويغلى على درجـــة ٣٦٠ فوق الصفر ، ويستعمل لاستخراج الذهب والفضة بالتملغم وفي البارومتر والترمومتر وفي عمل المرايا وفي الطب دهانا على الجلد في معالجة الزهري

(٣ - ٤) هذه العناصر والاحجار معروفة كلها فلا حاجة الى شرحها

(٥) الشبه - بكسر ففتح - هو النحاس الاصفر .

كان ضاراً لهم لو نالوه ، ومن أوغل فى المعادن انتهى إلى واد عظيم يجري منصلتاً بماء غزير ، لايدرك غوره ، ولا حيلة فى عبوره ، ومن ورائه أمثال الجبال من الفضة .

تفكر الآن فى هذا . من تدبير الخالق الحكيم ، فانه أراد جل ثناؤه ان يرى العباد قدرته . وسعة خزائنه ، ليعلموا انه لوشاء ان يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل ، لكن لا صلاح لهم في ذلك ، لأنه لو كان فيكون فيها - كما ذكرنا - سقوط هذا الجوهر عند الناس ، وقلة انتفاعهم به . . .

واعتبر ذلك بانه قد يظهر الشيء الظريف مما يحدثه الناس من الأواني والأمتعة ، فما دام عزيزاً قليلا ، فهو نفيس جليل آخذ الثمن ، فاذا فشا وكثر في ايدي الناس ، سقط عندهم وخست قيمته . . ونفاسة الأشياء من عزتها .

﴿ النبات وما فيه من ضروب المآرب ﴾

فكر يامفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب . فالثمار للغذاء ، والاتبان (١) للعلف ، والحطب للوقود ، والخشب لكل شيء من انواع التجارة وغيرها ، واللحاء (٢) والورق والأصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع . . أرأيت لو كنا نجد الثمار التي نغتذي بها مجموعة على وجه الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها ،

---

(١) لم يرد في معاجم اللغة العربية لفظ الاتبان على معنى التبن المعروف ولعل اللفظ قد غيره النساخ والصحيح تبن .

(٢) اللحاء : قشر العود أو الشجر .

كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا ، وان كان الغذاء موجوداً فان المنافع بالخشب والحطب والاتبان وسائر ما عددناه كثيرة عظيم قدرها ، جليل موقعها ، هذا مع ما فى النبات من التلذذ بحسن منظره ، ونضارته التي لا يعد لها شيء من مناظر العالم وملاهيه .

﴿ الريع فى النبات وسببه ﴾

فكر يا مفضل فى هذا الريع الذي جعل فى الزرع ، فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة واكثر وأقل ، وكان يجوز للحبة أن تأتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع إلا ليكون في الغلة (١) متسع ، لما يرد في الارض من البذر ، وما يتقوت الزراع ، الى ادراك زرعها المستقبل ، ألا ترى ان الملك لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل فى ذلك أن يعطي أهله ما يبذرونه في أرضهم وما يقوتهم الى ادراك زرعهم .

فانظر كيف تجدهذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم ، فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج اليه للقوت والزراعة ، وكذلك الشجر والنبت والنخل يريع الريع الكثير ، فانك ترى الاصل الواحد حوله من فراخه أمراً عظيما ، فلم كان كذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس ، ويستعملونه فى مآربهم ، وما يرد فيغرس فى الارض ، ولو كان الاصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يريع لما امكن أن يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس ، ثم كان ان اصابته آفة انقطع أصله ، فلم يكن منه خلف .

(١) الغلة ـ بالفتح ـ : الدخل من كراء دار وفائدة ارض ونحوذلك والجمع غلات وغلال .

﴿ بعض النباتات وكيف تصان ﴾

تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فانها تخرج في اوعية مثل الخرائط (١) لتصونها وتحجبها من الآفات ، إلى أن تشتد وتستحكم ، كما قد تكون المشيمة (٢) على الجنين لهذا المعنى بعينه وأما البُرّ (٣) وما أشبهه فانه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السنبل لتمنع الطير منه ليتوفر على الزراع فان قال قائل : أو ليس قد ينال الطير من البرّ والحبوب ؟ قيل له : بلى على هذا قدّر الامر فيها ، لأن الطير خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله تبارك وتعالى له في ما تخرج الارض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعبث بها ويفسد الفساد الفاحش . فان الطير لو صادف الحب بارزاً ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينسفه أصلا ، فكان يعرض من ذلك ان يبشم (٤) الطير فيموت ، ويخرج الزراع من زرعه صفراً ، فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه ، فينال الطائر منه شيئاً يسيراً يتقوت به ، ويبقى أكثره للانسان ، فانه أولى به ، إذ كان

---

(١) لم نجد للفظ « الخرائط » هنا معنى يتسق ومراد الامام « ع » ولعله يريد الشكل المخروطي وهو ما يبتدئ من سطح مستدير ويرتفع مستدقا حتى ينتهي إلى نقطة .

(٢) المشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة ، جمعه : مشيم ومشايم .

(٣) البر ـ بضم فتشديد ـ هو القمح ، الواحدة برّة .

(٤) يبشم الطعام : أي يتخم من الطعام .

هو الذي كدح فيه وشق به ، وكان الذي يحتاج اليه اكثر مما يحتاج اليه الطير

﴿ الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات ﴾

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات ، فانها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ، ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء ، جعلت اصولها مركوزه في الأرض لتنزع منها الغذاء فتؤديه الى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها ، وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للارض لتنزع منها الغذاء ، كما ترضع أصناف الحيوان امهاتها ، ألم تر الى عمد الفساطيط (١) والخيم كيف تمد بالأطناب (٢) من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه ، ولو لا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام فى الريح العاصف ؟ .

فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحيلة التي تستعملها الصناع في ثبات الفساطيط والخيم ، متقدمة في خلق الشجر ، لأن خلق الشجر قبل صنعة الفساطيط والخيم . . ألا ترى عمدها وعيدانها من الشجر ، فالصناعة مأخوذة من الخلقة .

﴿ خلق الورق ووصفه ﴾

تأمل يامفضل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة

---

(١) الفساطيط جمع فسطاط ـ بالضم او الكسر ـ بيت من شعر .

(٢) الاطناب جمع طنب ـ بضمتين ـ حبل طويل يشدبه سرادق البيت

فيها أجمع ، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجباً ، لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عام كامل ، ولاحتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام ، فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بلاحركة ولا كلام ، إلا بالارادة النافذة في كل شيء ، والأمر المطاع . . واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق الدقاق ، فانها جعلت تتخلل الورقة بأسرها ، لتسقيها وتوصل الماء اليها ، بمنزلة العروق المبثوثة في البدن ، لتوصل الغذاء الى كل جزء منه ، وفي الغلاظ منها معنى آخر ، فانها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها ، لئلا تنهتك وتتمزق ، فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب . فالصناعة تحكي الخلقة وان كانت لا تدركها على الحقيقة .

﴿ العجم والنوى والعلة في خلقه ﴾

فكر في هذا العجم والنوى والعلة فيه ، فانه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس ان عاق دون الغرس عائق ، كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة اليه في مواضع أخر ، فان حدث على الذي في بعض المواضع منه حادث وجد في موضع آخر ، ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها ، ولو لا ذلك لتشدخت (١) وتفسخت ، وأسرع اليها الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه ، فيستعمل منه ضروب من المصالح ، وقد

(١) تشدخت : تكسرت .

تبين لك موضع الأرب في العجم والنوى .

فكر الآن في هذا الذي تجده فوق النواة من الرطبة ، وفوق العجم من العنبة ، فما العلة فيه ؟ ولماذا يخرج في هذه الهيئة ؟ وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون في السدر (١) والدُلب (٢) وما أشبه ذلك . . فلم صار يخرج فوقه هذه المطاعم اللذيذة ، إلا ليستمتع بها الانسان ؟ .

﴿ موت الشجر وتجدد حياته وما فى ذلك من ضروب التدبير ﴾

فكر فى ضروب من التدبير في الشجر ، فانك تراه يموت في كل سنة موتة ، فتحتبس الحرارة الغريزية في عوده ، ويتولد فيه مواد الثمار ثم يحيي وينتشر ، فيأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع ، كما تقدم اليك أنواع الأطبخة التي تعالج بالايدي واحداً بعد واحد ؛ فترى الاغصان في الشجر تتلقاك بثمارها حتى كأنها تناولكها عن يد ، وترى الرياحين تتلقاك فى أفنانها (٣) كأنها تجيئك بانفسها ، فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم وما العلة فيه إلا تفكيه الانسان بهذه الثمار والأنوار ؟ . والعجب من اناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها .

---

(١) السدر - بالكسر - شجر النبق جمعه سدور .

(٢) الدلب - بالضم - شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر والواحدة دلبة .

(٣) الافنان جمع فنن وهو الغصن المستقيم .

﴿ خلق الرمانة وأثر العمد فيه ﴾

واعتبر بخلق الرمانة وما ترى فيها من اثر العمد والتدبير ، فانك ترى فيها كامثال التلال ، من شحم مركوم في نواحيها ، وحب مرصوف صفاً كنحو ما ينضد بالايدي . وترى الحب مقسوماً أقساماً ، وكل قسم منها ملفوفاً بلفائف من حجب منسوجة أعجب النسج والطفه ، وقشره يضم ذلك كله .

فمن التدبير في هذه الصنعة انه لم يكن يجوز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده ، وذلك ان الحب لا يمد بعضه بعضاً ، فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء . . ألا ترى ان أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم ، ثم لف بتلك اللفائف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب ، وغشى فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحصنه من الآفات . فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة ، وفيه أكثر من هذا لمن أراد الاطناب (١) والتذرع (٢) فى الكلام ، ولكن فيما ذكرت لك كفاية في الدلالة والاعتبار .

﴿ حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة ﴾

فكر يا مفضل في حمل اليقطين الضعيف مثل هذه الثمار الثقيلة من الدباء (٣) والقثاء (٤) والبطيخ وما فى ذلك من التدبير والحكمة ، فانه

---

(١) يقال : اطنب في الوصف أو القول ، أي بالغ .

(٢) التذرع في الكلام هو الاكثار منه والافراط فيه .

(٣) لم نقف عليه .

(٤) القثاء ـ بالضم ـ نوع من النبات ثمره يشبه ثمر الخيار الواحدة قثاءة

حين قدر أن يحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الارض ، ولو كان ينتصب قائماً كما ينتصب الزرع والشجر ، لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ، ولتقصف قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها . فانظر كيف صار يمتد على وجه الأرض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه فترى الاصل من القرع (١) والبطيخ مفترشاً الارض ، وثماره مبثوثة عليها وحواليه كأنه هرة ممتدة ، وقد اكتنفتها جراؤها (٢) لترضع منها .

﴿ موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها ﴾

وانظر كيف صارت الأصناف توافي في الوقت المشاكل لها ، من حمارة (٣) الصيف ووقدة الحر فتلقاها النفوس بانشراح وتشوق اليها ، ولو كانت توافي الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً (٤) منها مع ما يكون فيها من المضرة للابدان . ألا ترى انه ربما ادرك شيء من الخيار في الشتاء ، فيمتنع الناس من أكله إلا الشره الذي لا يمتنع من اكل ما يضره ويسقم معدته .

﴿ في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك ﴾

فكر يا مفضل في النخل ، فانه لما صار فيه إناث تحتاج الى التلقيح

---

(١) القرع ـ بالفتح ـ نوع من اليقطين ، الواحدة قرعة .

(٢) في الاصل المطبوع « اجزاؤها » وهذا تصحيف شنيع ، والجراء جمع جرو ـ بتثليث الجيم ـ صغير كل شيء حتى الرمان والبطيخ وغلب على ولد الكلب والأسد ، والمراد هنا بالجراء اولاد الهرة .

(٣) الحمارة : شدة الحر والجمع حمار .

(٤) اقشعر : تغير لونه .

جعلت فيه ذكورة للقاح من غير غراس ، فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي يلقح الاناث لتحمل وهو لا يحمل . تأمل خلقة الجذع كيف هو ؟ فانك تراه كالمنسوج نسجاً من خيوط ممدودة كالسدى واخرى معه معترضة كاللحمة (١) كنحو ماينسج بالأيدي ، وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوات (٢) الثقيلة وهز الرياح العواصف اذاصار نخلة وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه اذا صار جذعا

وكذلك ترى الخشب مثل النسج فانك ترى بعضه مداخلا بعضه بعضاً طولا وعرضاً كتداخل اجزاء اللحم ، وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فانه لو كان مستحصفاً (٣) كالحجارة لم يمكن لن يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشبة كالأبواب والاسرة والتوابيت وما أشبه ذلك . . ومن جسيم المصالح في الخشب انه يطفو على الماء ، فكل الناس يعرف هذا منه ، وليس كلهم يعرف جلالة الأمر فيه . فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والاظراف (٤) تحمل

---

(١) اللحمة ـ بالضم ـ ماسدي به بين سدى الثوب أي مانسج عرضا وهو خلاف سواه والجمع لحم .

(٢) فى الاصل المطبوع ـ قنوان ـ ولا معنى لها هنا . . والقنوات جمع قناة وهي العصا الغليظة ، وقد أراد بها الامام عليه السلام هنا هي سعف النخل الغليظة .

(٣) أراد بالمستحصف : الشديد المحكم كانه الحجارة .

(٤) كذا في النسخ ، والظرف لا يجمع على لفظ اظراف وانما يقال للجمع ظروف .

أمثال الجبال من الحمولة ، وأنى كان ينال الناس هذا الرفق وخفة المؤنة فى حمل التجارات من بلد إلى بلد ، وكانت تعظم المؤنة عليهم فى حملها حتى يلقى كثير مما يحتاج اليه في بعض البلدان مفقوداً أصلا او عسر وجوده .

﴿ العقاقير واختصاص كل منها ﴾

فكر في هذه العقاقير وما خص بها كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء ، فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج (١) وهذا ينزف المرّة السوداء (٢) مثل الافتيمون (٣) وهذا ينفي الرياح مثل السكبينج (٤) وهذا يحلل الأورام ، وأشباه هذا من افعالها فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة ؟ ومن فطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها ؟. ومتى كان يوقف على هذا منها بالعرض والاتفاق

---

(١) جاء في تذكرة الانطاكي : شيطرج هندي هو الخامشة وهو نبت يوجد بالقبور الخراب له ورق عريض ودقيق ينتثر أعلاه اذا برد الجو وزهره أحمر إلى بياض ، يخلف بزر أسود أصغر من الخردل ورائحته ثقيلة حادة وطعمه الى مرارة .

(٢) المرة السوداء : خلط من أخلاط البدن والجمع مرار .

(٣) افتيمون لفظ يوناني معناه دواء الجنون وهو نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة وفروع كالخيوط الليفية تحف باوراق دقاق خضر وزهر الى حمرة وغبرة وبزر دون الخردل أحمر إلى صفرة يلتف بما يليه .

(٤) سكبينج او سكنبيج هو شجرة بفارس ، ويورد الاطباء الاقدمون اوصافا طبية كثيرة من السكنبيج ويذكرون انه يذهب عدة أمراض لا مجال لذكرها هنا .

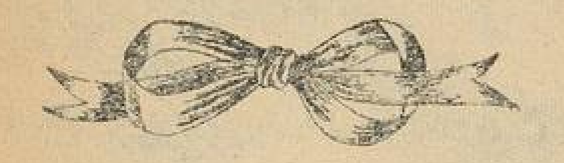
كما قال القائلون ؟ وهب الانسان فطن لهذه الاشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه ، فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ان اصابته ببعض العقاقير فيبرأ ، وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم ، وأشباه هذا كثير ، ولعلك تشكك فى هذا النبات النابت في الصحاري والبراري حيث لا انس ولا أنيس ، فتظن انه فضل لا حاجة اليه ، وليس كذلك ، بل هو طعم لهذه الوحوش ، وحبه علف للطير ، وعوده وأفنانه حطب ، فيستعمله الناس ، وفيه بعد أشياء تعالج بها الابدان ، واخرى تدبغ بها الجلود ، واخرى تصبغ الامتعة ، وأشباه هذا من المصالح . الست تعلم ان من اخس النبات وأحقره هذا البردى وما اشبهها ، ففيها مع هذا من ضروب المنافع ، فقد يتخذ من البردى القراطيس التي يحتاج اليها الملوك والسوقة ، والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس ، ويعمل منه الغلف التي يوقى بها الاواني ، ويجعل حشوا بين الظروف في الاسفاط ، لكيلا تعيب وتنكسر ، وأشباه هذا من المنافع

فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق وكبيره وبما له قيمة وما لا قيمة له ، واخس من هذا واحقره الزبل ، والعذرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معا ، وموقعها من الزروع والبقول والخضر أجمع الموقع الذي لا يعدله شيء ، حتى ان كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو الا بالزبل والسماد الذي يستقذره الناس ، ويكرهون الدنو منه .

واعلم انه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته ، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين ، وربما كان الخسيس فى سوق المكتسب نفيساً في سوق العلم ،

فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته ، فلو فطن طالبوا الكيمياء لما في العذرة ، لاشتروها بانفس الأثمان وغالوا بها .

قال المفضل : وحان وقت الزوال ، فقام مولاي إلى الصلاة وقال بكر إلي غداً إن شاء الله تعالى . . فانصرفت وقد تضاعف سروري بما عرفنيه ، مبتهجاً بما آتانيه ، حامداً لله على مامنحنيه . . فبت ليلتي مسروراً



المجلس الرابع

قال المفضل : فلما كان اليوم الرابع بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي ، فامرني بالجلوس فجلست ، فقال عليه السلام : منا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس ، للاسم الاقدم ، والنور الأعظم ، العلي العلام ، ذى الجلال والاكرام ، ومنشيء الأنام ، ومفني العوالم والدهور ، وصاحب السر المستور ، والغيب المحظور ، والاسم المخزون . والعلم المكنون ، وصلواته وبركاته على مبلغ وحيه ، ومؤدي رسالته ، الذي بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه ، وسراجاً منيراً ، ليهلك من هلك عن بينة . ويحيى من حي عن بينة ، فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطيبات ، والتحيات الزاكيات الناميات ، وعليه وعليهم السلام والرحمة والبركات في الماضين والغابرين ، أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وهم أهله ومستحقوه ..

﴿ الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك ﴾

قد شرحت لك يا مفضل من الأدلة على الخلق ، والشواهد على صواب التدبير والعمد في الانسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك . مافيه عبرة لمن اعتبر ، وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة فى بعض الازمان التي اتخذها أناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخلق والخالق والعمد والتدبير ، وما انكرت المعطلة والمنانيه من المكاره والمصائب ، وما أنكروه من الموت والفناء ، وما قاله أصحاب الطبائع ، ومن زعم ان كون

الاشياء بالعرض والاتفاق ، ليتسع ذلك القول في الرد عليهم قاتلهم الله أنى يؤفكون .

﴿ الآفات ونظر الجهال اليها والجواب على ذلك ﴾

اتخذ أناس من الجهال هـــذه الآفات الحادثة في بعض الازمان ـ كمثل الوباء واليرقان والبرد (١) والجراد ـ ذريعة الى جحود الخالق والتدبير والخلق ، فيقال في جواب ذلك : انه ان لم يكن خالق ومدبر فلمَ لا يكون ما هو اكثر من هذا وأفظع ؟ فمن ذلك أن تسقط السماء على الارض ، وتهوى الارض فتذهب سفلا ، وتتخلف الشمس عن الطلوع أصلا ، وتجف الانهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة ، وتركد الريح ، حتى تخم الاشياء وتفسد ، ويفيض ماء البحر على الارض فيغرقها ، ثم هذه الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما أشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد ، حتى تجتاح كل ما فى العالم ، بل تحدث في الاحايين ، ثم لا تلبث ان ترفع . افلا ترى ان العالم يصان ويحفظ من تلك الاحداث الجليلة التي لوحدث عليه شيء منها كان فيه بواره ويلذع (٢) أحياناً بهذه الآفات اليسيرة ، لتأديب الناس وتقويمهم ، ثم لا تدوم هذه الآفات ، بل تكشف عنهم عند القنوط منهم ، فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة .

وقد انكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما

---

(١) ذهب ذكر اليرقان والبرد سابقا .

(٢) يقال لذعته النار أي أحرقته ولذعه بلسانه اي أوجعه بكلام . وفى بعض النسخ باهمال الاول واعجام الثاني من لدغ العقرب .

يقول : ان كان للعالم خالق رؤوف رحيم ، فلم تحدث فيه هذه الامور المكروهة . . . والقائل بهذا القول يذهب إلى انه ينبغي أن يكون عيش الانسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر ، ولو كان هكذا كان الانسان يخرج من الاشر (١) والعتو (٢) إلى ما لا يصلح في دين ولا دنيا كالذي ترى كثيراً من المترفين ومن نشأ في الجدة والامن ، يخرجون اليه حتى ان أحدهم ينسى انه بشر ، وانه مربوب او ان ضرراً يمسه ، او ان مكروهاً ينزل به ، او انه يجب عليه ان يرحم ضعيفاً ، او يواسي فقيراً ، أو يرثي لمبتلى ، أو يتحنن على ضعيف ، أو يتعطف على مكروب ، فاذا عضته المكاره ووجد مضضها ، اتعظ وابصر كثيراً مما كان جهله وغفل عنه ، ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه .

والمنكرون لهذه الامور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة ، ويتسخطون من المنع من الاطعمة الضارة ، ويتكرهون الادب الادب والعمل ، ويحبون ان يتفرغوا للهو والبطالة ، وينالوا كل مطعم ومشرب ، ولا يعرفون ما تؤديهم اليه البطالة من سوء النشو والعادة ، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة الضارة من الادواء والاسقام ، وما لهم فى الادب من الصلاح ، وفي الادوية من المنفعة ، وان شاب ذلك بعض الكراهة ، فان قالوا : فلم لم يكن الانسان معصوما من المساوي ، حتى لا يحتاج الى أن تلذعه هذه المكاره ، قيل : إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ،

---

(١) الاشر : البطر .

(٢) العتو - بالضم - الاستكبار وتجاوز الحد .

ولا مستحقاً للثواب عليها . فان قالوا : وما كان يضره أن لا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب ، بعد أن يصير الى غاية النعيم واللذات ؟. قيل لهم : اعرضوا على امرىء صحيح الجسم والعقل ، ان يجلس منعما ، ويكفي كلما يحتاج اليه بلاسعي ولا استحقاق ، فانظروا هل تقبل نفسه ذلك ، بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعي والحركة اشد اغتباطاً وسروراً منه بالكثير مما يناله بغير الاستحقاق ، وكذلك نعيم الآخرة ايضاً يكمل لأهله بان ينالوه بالسعي فيه والاستحقاق له فالنعمة على الانسان في هذا الباب مضاعفة ، فان اعدّ له الثواب الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل الى ان ينال ذلك بسعي واستحقاق ، فيكمل له السرور والاغتباط عما يناله منه . . فان قالوا : اوليس قد يكون من الناس من يركن الى ما نال من خير ، وان كان لا يستحقه فما الحجة في منع من رضى ان ينال نعيم الآخرة على هذه الجملة ؟ قيل لهم : ان هذا باب لو صح للناس لخرجوا الى غاية الكلب (١) والضراوة على الفواحش ، وانتهاك المحارم ، فمن كان يكف نفسه عن فاحشة او يتحمل المشقة في باب من ابواب البر لوثق بانه صائر الى النعيم لا محالة ، او من كان يأمن على نفسه واهله وماله من الناس لو لم يخاف الحساب والعقاب ، فكان ضرر هذا الباب سينال الناس

(١) في الاصل المطبوع الكلبة ولا معنى للفظ هنا ، والصحيح ما ذكرناه اذ الكلب - بفتحتين - هو داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعض الناس فتكلب الناس ايضاً اذا تمنعوا عن استعمال لقاح الطبيب الفرنسي المعروف باستور .

في هذه الدنيا قبل الآخرة . فيكون في ذلك تعطيل العدل والحكمة معا ، وموضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الامور في غير مواضعها

﴿ لماذا تصيب الآفات جميع الناس وما الحجة في ذلك ﴾

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس فتعم البر والفاجر أو يبتلى بها البر ويسلم الفاجر منها ، فقالوا : كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم وما الحجة فيه ؟ فيقال لهم . ان هذه الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح جميعاً . فان الله عز وجل جعل ذلك صلاحا للصنفين كليهما ، اما الصالحون فان الذي يصيبهم من هذا يذكرهم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر ، وأما الطالحون فان مثل هذا اذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش ، وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحاً في ذلك ، اما الابرار فانهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة واما الفجار فانهم يعرفون رأفة ربهم ، وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق . فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس ، والصفح عمن أساء اليهم . . ولعل قائلا يقول : ان هذه الآفات التي تصيب الناس في أموالهم ، فما قولك فيما يبتلون به في ابدانهم ، فيكون فيه تلفهم كمثل الحرق والغرق والسيل والخسف ؟ فيقال له : ان الله جعل في هذا ايضاً صلاحاً للصنفين جميعاً . اما الأبرار فلما لهم في مفارقة هذه الدنيا من الراحة من تكاليفها ، والنجاة من مكارهها ، واما الفجار فلما لهم في ذلك من تمحيص أوزارهم ، وحبسهم عن الازدياد منها ، وجملة القول ان الخالق تعالى ذكره بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الامور كلها الى الخير والمنفعة ، فكما

انه اذاقطعت الريح شجرة اوقطعت نخلة ، أخذها الصانع الرفيق واستعملها في ضروب من المنافع ، فكذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس فى أبدانهم واموالهم ، فيصيرها جميعاً الى الخير والمنفعة . . فان قال ولم تحدث على الناس ؟ قيل له : لكيلا يركنوا إلى المعاصي من طول السلامة ، فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي ، ويفتر الصالح عن الاجتهاد فى البر فان هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس فى حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على مافيه رشدهم ، فلو خلوا منها لغلوا فى الطغيان والمعصية ، كما غلا الناس فى اول الزمان . حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الارض منهم .

﴿ الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك ﴾

ومما ينتقده الجاحدون للعمد والتقدير الموت والفناء . فانهم يذهبون الى انه ينبغي أن يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا . مبرئين من هذه الآفات ، فينبغي ان يساق هذا الأمر إلى غايته ، فينظر ما محصوله .

أفرأيت لو كان كل من دخل العالم ويدخله يبقون ، ولا يموت احد منهم ، ألم تكن الأرض تضيق بهم ، حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعائش ، فانهم - والموت يفنيهم أولاً فأولاً - يتنافسون فى المساكن والمزارع ، حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب ، وتسفك فيهم الدماء ، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون ، وكان يغلب عليهم الحرص والشره ، وقساوة القلوب ، فلو وثقوا بانهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله ، ولا افرج لأحد عن شيء يسأله ، ولا سلا

عن شيء مما يحدث عليه ، ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من امور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره ، حتى يتمنى الموت والراحة من الدنيا . . فان قالوا : انه كان ينبغي انه يرفع عنهم المكاره والأوصاب حتى لايتمنوا الموت ولا يشتاقوا اليه . فقد وصفنا ما كان يخرجهم اليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين . وان قالوا : انه كان ينبغي أن لا يتوالدوا كيلا تضيق عنهم المساكن والمعائش . قيل لهم : اذا كان يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه فى الدارين جميعاً إذاً لم يدخل العالم إلا قرن (١) واحد ، لا يتوالدون ولا يتناسلون . . فان قالوا : انه كان ينبغي أن يخلق فى ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق الى انقضاء العالم ، يقال لهم : رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعائش عنهم ، ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون لذهب موضع الانس بالقرابات وذوي الارحام والانتصار بهم عند الشدائد ، وموضع تربية الاولاد والسرور بهم ؛ ففي هذا دليل على ان كلما تذهب اليه الأوهام ـ سوى ما جرى به التدبير ـ خطأ وسفه من الرأي والقول .

﴿ الطعن على التدبير من جهة اخرى والجواب عليه ﴾

ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة اخرى فيقول كيف يكون هاهنا تدبير ، ونحن نرى الناس فى هذه الدنيا من عزيز ، فالقوي يظلم ويغصب ، والضعيف يظلم ويسام الخسف ، والصالح فقير مبتلى ، والفاسق

(١) المراد بالقرن هنا أهل زمان واحد والجمع قرون .

معافى موسّع عليه ، ومن ركب فاحشة او انتهك محرما لم يعاجل بالعقوبة .
فلو كان فى العالم تدبير لجرت الامور على القياس القائم ، فكان الصالح هو المرزوق ، والطالح هو المحروم ، وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف ، والمنتهك للمحّارم يعاجل بالعقوبة . فيقال في جواب ذلك : ان هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاحسان الذي فضل به الانسان على غيره من الخلق ، وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب ، وثقة بما وعد الله عنه ، ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف ، ويلمع لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ، ولم يكن أحد يعمل على يقين بثواب أوعقاب ، حتى كان هذا يخرجهم عن حد الانسية إلى حد البهائم ، ثم لا يعرف ما غاب ، ولا يعمل إلا على الحاضر من نعيم الدنيا ، وكان يحدث من هذا أيضاً أن يكون الصالح انما يعمل للرزق والسعة فى هذه الدنيا ، ويكون الممتنع من الظلم والفواحش انما يكف عن ذلك لترقب عقوبة تنزل به من ساعته ، حتى تكون أفعال الناس كلها تجري على الحاضر لا يشوبه شيء من اليقين بما عند الله ، ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها ، مع ان هذه الامور التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بجارية على خلاف قياسه ، بل قد تجري على ذلك أحياناً والامر المفهوم .

فقد ترى كثيراً من الصالحين يرزقون المال لضروب من التدبير وكيلا يسبق الى قلوب الناس ان الكفار هم المرزوقون ، والابرار هم المحرومون ، فيؤثرون الفسق على الصلاح ، وترى كثيراً من الفساق

يعاجلون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم كما عوجل فرعون (١) بالغرق ، وبخت نصر (٢) بالتيه وبلبيس (٣) بالقتل وان امهل بعض الاشرار بالعقوبة ، وأخر بعض الاخيار بالثواب الى الدار الآخرة ، لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير ، فان مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ولا يبطل تدبيرهم ، بل يكون تأخيرهم ما أخروه ، وتعجيلهم ماعجلوه داخلا فى صواب الرأي والتدبير واذا كانت الشواهد تشهد ، وقياسهم يوجب ان للاشياء خالقاً حكيماً قادراً فما يمنعه أن يدبر خلقه ، فانه لا يصلح فى قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا باحدى ثلاث خلال إما عجز واما جهل واما شرارة ، وكل هذا محال في صنعته عزوجل وتعالى ذكره ، وذلك ان العاجز لا يستطيع أن يأتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبة ، والجاهل لا يهتدى لما فيها من الصواب والحكمة

---

(١) قصة غرق فرعون في البحر معروفة في الكتب المقدسة ، والقران الكريم يشير اليها في أكثر من موضع واحد .

(٢) أو نبوخذ نصر كان اعظم ملوك الكلدانيين ، وملك في بابل من سنة ٦٠٤ إلى سنة ٥٦١ ق م وقد وصف بالقوة والبأس وعد من أبطال التاريخ فى الشرق ، وجاء ذكره فى التوراة كثيراً لأنه عاقب الامم الغربية عقابا شديداً ، وهاجم اليهود ـ سكان مملكة يهوذا الصغيرة ـ هجوما صاعقا بعد ان أجلى اكثرهم الى بابل ودمر عاصمتهم اورشليم تدميراً شديداً

(١) السمت ـ بالفتح ـ الطريق والمحجة والجمع سموت .

(٣) بلبيس كذا فى الاصل وهو غير معروف عند المؤرخين ، ولم نجده فيما بين ايدينا من الكتب .

والشرير لا يتطاول لخلقها وانشائها ، واذا كان هذا هكذا وجب ان يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة ، وان كان لا يدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه ، فان كثيراً من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف أسبابه ، لأنها لا تعرف دخيلة أمر الملوك واسرارهم فاذا عرف سببه وجد قائماً على الصواب والشاهد المحنة . ولو شككت في بعض الأدوية والأطعمة فيتبين لك من جهتين أو ثلاث انه حار أو بارد ، ألم تكن ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك ؟ فما بال هؤلاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة واكثر منها ما لا يحصى كثرة ولو كان نصف العالم وما فيه مشكلا صوابه ، لما كان من حزم الرأي وسمت (١) الادب ان يقضي على العالم بالاهمال لأنه كان فى النصف الآخر وما يظهر فيه من الصواب ، واتقان ما يردع الوهم عن التسرع الى هذه القضية ، فكيف وكلما فيه اذافتش وجد على غاية الصواب ؟ حتى لايخطر بالبال شيء إلا وجد ما عليه الخلقة اصح وأصوب منه .

﴿ اسم هذا العالم بلسان اليونانية ﴾

واعلم يا مفضل ان اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم « قوسموس » وتفسيره الزينة ، وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة ، أفكانوا يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التقدير والنظام فلم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظاما حتى سموه زينة ، ليخبروا انه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان ، على غاية الحسن والبهاء .

---

(١) السمت ـ بالفتح ـ الطريق والمحجة والجمع سموت ،

﴿ عمى ماني عن دلائل الحكمة وادعاؤه علم الاسرار ﴾

اعجب يا مفضل من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ ، وهم يرون الطبيب يخطىء ، ويقضون على العالم بالاهمال ، ولا يرون شيئاً منه مهملا ، بل أعجب من أخلاق من ادعى الحكمة ، حتى جهلوا مواضعها في الخلق ، فارسلوا السنتهم بالذم للخالق جل وعلا .. بل العجب من المخذول (ماني) حين ادعى علم الاسرار وعمى عن دلائل الحكمة فى الخلق حتى نسبه إلى الخطأ ونسب خالقه إلى الجهل تبارك الحكيم الكريم .

﴿ انتقاد المعطلة فيما راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل ﴾

وأعجب منهم جميعاً (المعطلة) الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل ، فلما أعوزهم ذلك ، خرجوا إلى الجحود والتكذيب ، فقالوا ولم لا يدرك بالعقل ؟ قيل لأنه فوق مرتبة العقل ، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته . . فانك لو رأيت حجراً يرتفع فى الهواء علمت ان رامياً رمى به ، فليس هذا العلم من قبل البصر ، بل من قبل العقل ، لأن العقل هو الذي يميزه ، فيعلم ان الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه . . أفلا ترى كيف وقف البصر على حده ، فلم يتجاوزه ، فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه ، ولكن يعقله بعقل أقر أن فيه نفساً ولم يعاينها ، ولم يدركها بحاسة من الحواس .

﴿ معرفة العقل للخالق معرفة اقرار لا معرفة احاطة ﴾

وعلى حسب هذا أيضاً نقول : ان العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الاقرار ، ولا يعرفه بما يوجب له الاحاطة بصفته . . فان قالوا

فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف ، ولا يحيط به ؟ قيل لهم انما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه ، وهو أن يوقنوا به ويقفوا عندأمره ونهيه ، ولم يكلفوا الاحاطة بصفته ، كما ان الملك لايكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير ، وأبيض هو أم أسمر ، وانما يكلفهم الاذعان لسلطانه ، والانتهاء إلى أمره . ألا ترى ان رجلا لو أتى باب الملك . فقال : اعرض عليَّ نفسك حتى اتقصى معرفتك ، وإلا لم أسمع لك كان قد أحل نفسه بالعقوبة . . فكذا القائل انه لا يقر بالخالق سبحانه ، حتى يحيط بكنهه متعرضاً لسخطه . . فان قالوا : أوليس قد نصفه ؟ فنقول هو العزيز الحكيم الجواد الكريم ؟ قيل لهم كل هــذه صفات اقرار ، وليست صفات احاطة ، فانا نعلم أنه حكيم ، ولا نعلم بكنه ذلك منه وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته ، كما قد نرى السماء فلا ندري ما جوهرها ، ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه ، بل فوق هـذا المثال بما لا نهاية له ، ولأن الأمثال كلها تقصر عنه ، ولكنها تقود العقل الى معرفته . . فان قالوا : ولم يختلف فيه ؟ قيل لهم : لقصر الأوهام عن مدى عظمته ، وتعدّيها اقدارها في طلب معرفته ، وانها تروم الاحاطة به ، وهي تعجز عن ذلك وما دونه .

﴿ الشمس واختلاف الفلاسفة في وضعها وشكلها ومقدارها ﴾

فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها . . . ولذلك كثرت الأقاويل فيها ، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها ، فقال بعضهم هو فلك أجوف مملوء ناراً ، له فم

يجيش بهذا الوهج والشعاع . . وقال آخرون هو سحابة . . وقال آخرون هو جسم زجاجي ، يقل نارية فى العالم ، ويرسل عليه شعاعها . . وقال آخرون هو صفو لطيف ينعقد من ماء البحر . . وقال آخرون هـو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار . . وقال آخرون هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة . ثم اختلفوا فى شكلها فقال بعضهم هي بمنزلة صفيحة عريضة . . وقال آخرون هي كالـكرة المدحرجة . . وكذلك اختلفوا فى مقدارها . . فزعم بعضهم انها مثل الأرض سواء . . وقال آخرون بل هي أقل من ذلك . وقال آخرون بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة . وقال أصحاب الهندسة هي أضعاف الأرض مائة وسبعين مرة . . . ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم فى الشمس ، دليل على انهـم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها ، فاذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ، ويدركها الحس ، قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها ، فـكيف ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم ؟ . فان قالوا : ولم استتر ؟ قيل لهم : لم يستتر بحيـلة يخلص اليها ، كمن يحتجب من الناس بالابواب والستور وانما معنى قولنا استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام ، كما لطفت النفس ، وهي خلق من خلقه . وارتفعت عن ادراكها بالنظر . فان قالوا ولم لطف تعالى عن ذلك علواً كبيراً ؟ كان ذلك خطأ من القول ، لأنه لا يليق بالذي هـو خالق كل شيء إلا أن يكون مباينا لكل شيء ، متعاليا عن كل شيء سبحانه وتعالى .

﴿ الحق الذي تطلب معرفته من الاشياء أربعة أوجه وتفصيل ذلك ﴾

فان قالوا : كيف يعقل أن يكون مباينا لكل شيء متعاليا عن كل شيء ؟ قيل لهم : الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء هو أربعة أوجه ، فاولها أن ينظر أموجود هو أم ليس بموجود ، والثاني أن يعرف ما هو فى ذاته وجوهره ؟ والثالث أن يعرف كيف هو وما صفته ؟ والرابع أن يعلم لماذا هو ولأي علة ؟ فليس من هذه الوجوه شيء يمكن للمخلوق أن يعرفه من الخالق حق معرفته ، غير انه موجود فقط . فاذا قلنا : وكيف وما هو ؟ فممتنع علم كنهه ، وكمال المعرفة به . واما لماذا هو ؟ فساقط في صفة الخالق ، لأنه جل ثناؤه علة كل شيء ، وليس شيء بعلة له ، ثم ليس علم الانسان بانه موجود ، يوجب له أن يعلم : ما هو وكيف هو ؟ كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم : ما هي وكيف هي ؟ وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة . . فان قالوا : فانتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفا ، حتى كانه غير معلوم ؟ قيل لهم : هو كذلك من جهة اذا رام العقل معرفة كنهه والاحاطة به ، وهو من جهة أخرى أقرب من كل قريب اذا استدل عليه بالدلائل الشافية . . فهو من جهة كالواضح لا يخفى على أحد وهو من جهة كالغامض لا يدركه أحد ، وكذلك العقل أيضا ظاهر بشواهده ومستور بذاته .

﴿ أصحاب الطبائع ومناقشة أقوالهم ﴾

فاما (أصحاب الطبائع) فقالوا : ان الطبيعة لا تفعل شيئا لغير معنى ولا عما فيه تمام الشيء في طبيعته . وزعموا ان الحكمة تشهد بذلك ، فقيل

لهم : فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة ، والوقوف على حدود الأشياء بلا مجاوزة لها ، وهذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب ؟ فان أوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الأفعال ، فقد أقروا بما أنكروا ، لأن هذه هي صفات الخالق . وان انكروا أن يكون هذا للطبيعة ، فهذا وجه الخلق يهتف بان الفعل للخالق الحكيم ، وقد كان من القدماء طائفة أنكروا العمد والتدبير فى الأشياء ، وزعموا ان كونها بالعرض والاتفاق وكان مما احتجوا به هذه الآيات التي تكون على غير مجرى العرف والعادة كانسان يولد ناقصاً او زائداً اصبعاً ، او يكون المولود مشوهاً مبدل الخلق فجعلوا هذا دليلا على أن كون الأشياء ليس بعمد وتقدير بل بالعرض كيف ما اتفق أن يكون ؟ . . وقد كان (ارسطاطاليس) (١) رد عليهم فقال ان الذي يكون بالعرض والاتفاق انما هو شيء يأتي فى الفرط مرة لاعراض تعرض للطبيعة ، فتزيلها عن سبيلها ، وليس بمنزلة الامور الطبيعية الجارية

---

(١) ارسطاطاليس لفظة يونانية معناها محب الحكمة ويقال ارسطو وهو احدى الشخصيات العالمية التي اشتهرت منذ قروز بعيدة ، كان تلميذاً لأفلاطون بعد ان خلفه على دار التعليم عند غيبته الى صقلية نظر في الفلسفة بعد ان أتى عليه من العمر (٣٠) عاما . كان بليغ اليونانيين واجل علمائهم ، كما كان من ذوي الأفكار العالية في الفلسفة ، ويعرف بالمعلم الاول لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه ، وقد عظم محله عند الملوك حتى ان الاسكندر الاكبر كان يمضي الأمور عن رأيه ، عاش سبعا وستين سنة ، بعد ان توفى في خلكيس عام ٣٢٢ قبل الميلاد ، وله كتب كثيرة في مختلف فروع العلم .

على شكل واحد جرياً دائماً متتابعاً .

وأنت يا مفضل ترى أصناف الحيوان ان يجرى أكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد ، كالانسان يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع ، كما عليه الجمهور من الناس ، فاماما يولد على خلاف ذلك ، فانه لعلة تكون في الرحم ، أو فى المادة التي ينشأ منها الجنين ، كما يعرض في الصناعات ، حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته ، فيعوق دون ذلك عائق في الأداة ، أو فى الآلة التي يعمل فيها الشيء ، فقد يحدث مثل ذلك فى أولاد الحيوان للاسباب التي وصفنا ، فيأتي الولد زائداً أو ناقصاً أو مشوهاً ، ويسلم اكثرها فيأتي سوياً لا علة فيه ، فكما ان الذي يحدث في بعض أعمال الاعراض لعلة فيه لا يوجب عليها جميعاً الاهمال وعدم الصانع ، كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية لعائق يدخل عليها ، لا يوجب ان يكون جميعها بالعرض والاتفاق ، فقول من قال في الأشياء ان كونها بالعرض والاتفاق من قبيل ان شيئاً منها يأتي على خلاف الطبيعة بعرض يعرض له خطأ وخطل . . فان قالوا : ولم صار مثل هذا يحدث فى الاشياء ؟ قيل لهم ليعلم انه ليس كون الاشياء باضطرار من الطبيعة ، ولا يمكن أن يكون سواه - كما قال القائلون - بل هو تقدير وعمد من خالق حكيم ، اذ جعل الطبيعة تجري أكثر ذلك على مجرى ومنهاج معروف ، وتزول أحياناً عن ذلك ، لاعراض تعرض لها ، فيستدل بذلك على انهامصرفة مدبرة فقيرة الى ابداء الخالق وقدرته في بلوغ غايتها ، واتمام عملها ، تبارك الله أحسن الخالقين .

يا مفضل خذ ما آتيتك ، واحفظ ما منحتك ، وكن لربك من الشاكرين ، ولآلائه من الحامدين ، ولاوليائه من المطيعين ، فقدشرحت لك من الادلة على الخلق ، والشواهد على صواب التدبير والعمد ، قليلا من كثير ، وجزءاً من كل ، فتدبره وفكر فيه واعتبر به . فقلت بمعونتك يا مولاي أقو على ذلك ، وابلغه انشاء الله . . فوضع يده على صدري فقال احفظ بمشيئة الله ، ولا تنس انشاء الله ، فخررت مغشياً عليّ ، فلما أفقت قال : كيف ترى نفسك يا مفضل ؟ فقلت : قد استغنيت بمعونة مولاي وتأييده عن الكتاب الذي كتبته وصار ذلك بين يدي كأنما أقراه من كفي ، فلمولاي الحمد والشكر كما هو أهله ومستحقه .

فقال : يامفضل فرغ قلبك ، واجمع اليك ذهنك وعقلك وطمأنينتك فسألقي اليك من علم ملكوت السماوات والارض ، وما خلق الله بينهما وفيهما من عجائب خلقه ، واصناف الملائكة وصفوفهم ومقاماتهم ومراتبهم إلى سدرة المنتهى ، وسائر الخلق من الجن والانس ، الى الارض السابعة السفلى وما تحت الثرى ، حتى يكون ما وعيته جزءاً من اجزاء . انصرف اذا شئت مصاحباً مكلوءاً ، فانت منا بالمكان الرفيع ، وموضعك من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى ولا تسألن عما وعدتك حتى احدث لك منه ذكراً .

قال المفضل : فانصرفت من عند مولاي

بما لم ينصرف أحد بمثله

فهرست محتويات الكتاب

(المقدمة)

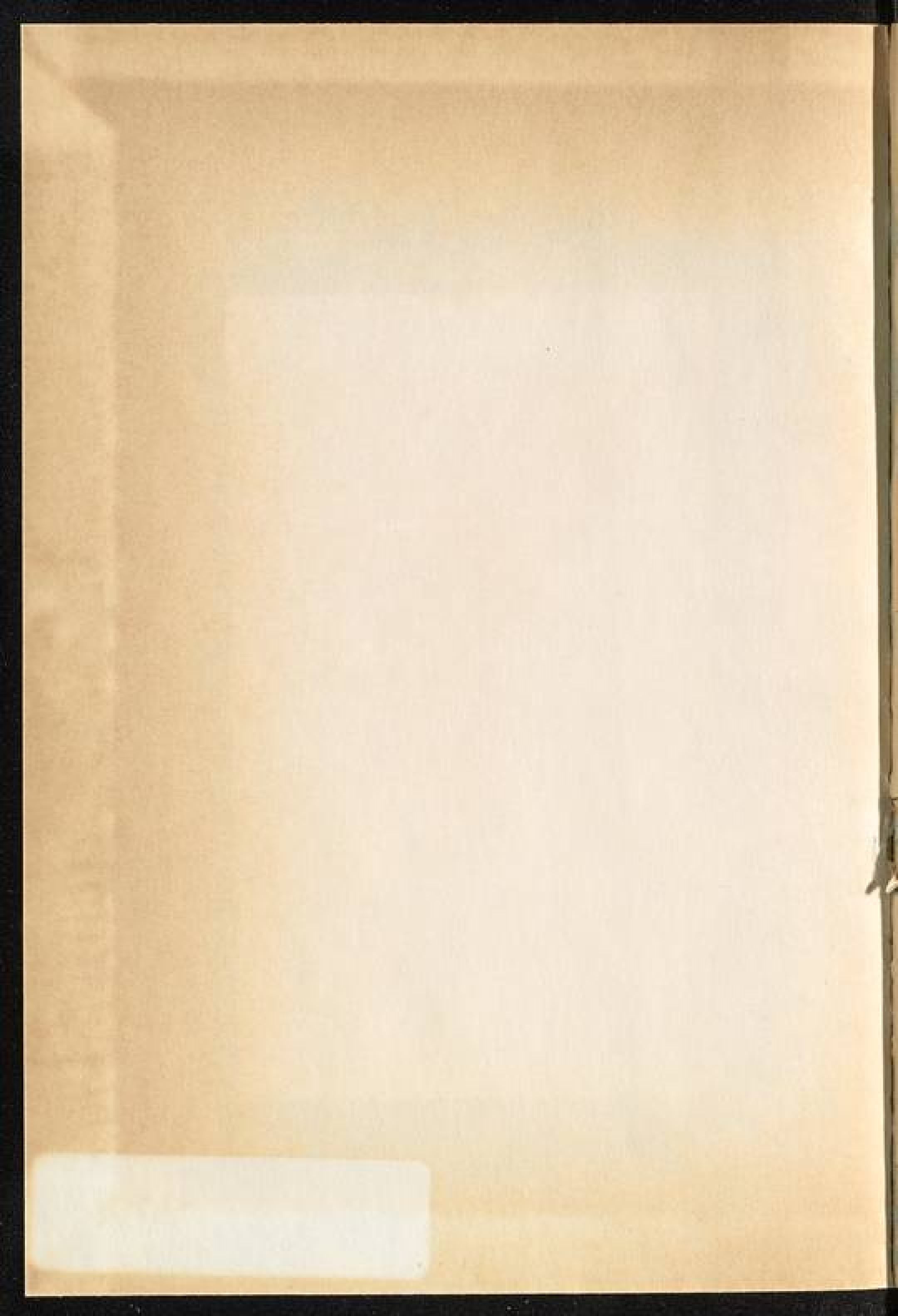
كتاب توحيد المفضل

المجلس الاول

المجلس الثاني

المجلس الثالث

المجلس الرابع



Date Due

